لوح ثلج

إسلام المصري

المصري،إسلام.

لوح ثلج. تأليف/ إسلام المصري.

التصنيف: رواية.

21 سم، 118ص.

مراجعة طبية: د. داليا السمني.

تدمك: 9789776986145

التدقيق اللغوي: محمد السباعي

الإخراج الفني: يوريكا لخدمات النشر والتوزيع

تصميم الغلاف: يوسف خالد

EUREKA
Eureka4publishing
حلّق خارج السرب

01288627690

eureka4publishing@gmail.com

رقم الإيداع: 9813

جميع الحقوق محفوظة و يحظر طبع أو تصوير أو تخزين أى جزء من الكتاب بأية وسيلة من وسائل تخزين المعلومات إلا بإذن كتابى صريح من الناشر

إهداء

إهـداء إلى الإنسـان, إلى هـذا المخلـوق الغريـب في تكوينـه الداخـلي, إلى تلـك النفـس المعذبـة بـين رغباتهـا وطموحاتهـا وحريتهـا وبـين الضغـوط التـي تقيدهـا تـارة, وبـين المتحكمـين فيهـا تـارة أخـرى.

تلـك النفـس التـي احتـار في تفسـير أفعالهـا أغلـب العلـماء, في بعـض الأحيـان تراهـا عاصيـة مسـتعصية,كإعصار إندونيـسي ضخـم في قوتـه وحجمـه, يطيـح بـكل مـا يواجهـه في دربـه لا يخـشى خراسـانيات مسـلحة ولا أشـجار عتيقـة, ولا نباتـات مزهـرة ذات ألـوان مبهجـة يفـوح منهـا عبيرهـا المميـز.

نفـس بشريـة غاضبـة لا تتحكـم في أفعالهـا ربمـا تتعاطـف معهـا إن علمـت مـا مـرت بـه, ربمـا تعلـم نقطـة تحولهـا مـن نفـس هادئـة إلى نفـس غاضبـة لا تخـشى شـيئاً, ولا تتعجـب مـن نفـس راضيـة نورهـا دليـل في وجههـا المـشرق المنـير و تـرى كلماتهـا رقيقـة سـليمة طيبـة ومنمقـة, لكنهـا تعبأ بـآلام لا مثيـل لهـا, تسـتطيع التحكـم في مجريـات الأمـور الظاهريـة, لكنهـا تعيسـة مـن الداخـل, ونفـس باتـت ذابلـة لا تشـكي ولا تتكلـم عـن آلامهـا , تلـك النفـس تظهـر مـا تبطنـه, فـلا تجـد للحديـث معنـى لأن المعنـى ظاهـر للجميـع.

ياأيتهـا النفـس الحـرة التـي لا يسـتطيع مخلـوق عـلى وجـه الكـرة الأرضيـة أن يتحكـم فيهـا إلا مـن خالقهـا, اهنئـي ولا تستسـلمي لمـن يريـد تقييـدك, واعلمـي أنـك حـرة, لا تسـمحي لأي نفـس أخـرى أن تتحكـم في مسـيرة حياتـك مهـما كان الثمـن, أهـدي إليـكِ تلـك الروايـة وتلـك الكلـمات التـي أردت أن تكـون بمثابـة الهديـة الهاديـة.

حـاول أن تجـد الأعـذار للنفـوس البشريـة التـي تحيـط بـك كـما تجدهـا لنفسـك تمامـاً, وعـش حـراً, ولا تعتـد عـلى حريـات الآخريـن وإلا ... سـتصبح حبيـس لـوح ثلـج.

تنويه..

أحـداث الروايـة بـكل مـا مـر بأبطالهـا أصحـاب مـرض نفـسي, لـه أعراضـه ولـه سـماته ولـه طـرق العـلاج الخاصـة بـه. وأسـماء العقاقـير المسـتخدمة تمـت مراجعتهـا طبيًـا مـع طبيبـة متخصصـة في الأمـراض النفسـية والعصبيـة, وتـم التعديـل في بعـض أجـزاء الروايـة حتـى تكـون معلوماتهـا صحيحـة وملائمـة لشـخصياتها.

مقدمة

الحيـاة بأيامهـا وسـنواتها الطويلـة, تزال قصـيرة, والبشر مخلوقــات قويــة يكمــن فيهــا الضعــف, والمشــاعر كالأرواح, تهنــأ وتتــألم, غــير ماديــة, غــير ملموســة, تجـول بهـا مواقـف وكلـمات, تجعلهـا تسـعد أو تجعلها مـن التعسـاء, نفوسـنا تميـل للخـير, لكننـا نتجـرع الـشر جرعـات, وتقبـل الواقـع والتعامـل معه بحـرص ومثابرة هـو رزق يتمتـع بـه مـن يفطـن لذلـك, ومـن يغفـل... يتجمـد داخـل لـوح ثلـج.

«الشرود يقودني دومًا إلى الحقيقة, أو تفاصيل لم أكن أعيها من قبل»

غرفة صغيرة، منضدة خشبية عتيقة، حوائط بيضاء لم يظهر عليها البياض من شدة عدم الاهتمام بالنظافة العامة للمكان الذي ساده اللون الرمادي، وكرسيان يجلس «آدم» علي إحداهما والآخر تجلس عليها طبيبة نفسية تدعى دكتور «هدير»، أوراق بيضاء مرتبة وقلم جاف يوضع أمامها قد تحتاجهما في تدوين بعض الملاحظات، وكوب من الماء الصافي لم يمس بعد.

لم يكن العالم مبهج كما تصورت عندما كنت أمكث في رحم أمي، لم يكن كما تصورته تماماً,كل ما واجهته كان مخالفاً لكل ما توقعته، وكيف لي أن أتصور أو أفكر أو أتوقع في هذة المرحلة، فقدت عقلك يا «آدم» أم تبصرت؟!

- أين ذهبت، هل من رد علي سؤالي؟

قالتها بطريقة تشعره فيها أنه قد أطال السكوت في الرد علي سؤالها

- آسف ولكني شردت قليلاً.

- لاعليك، هل تخبرني فيما شردت؟

- لم يكن مهماً بالنسبة إليكِ، هل من إعادة لسؤالك كي أستجمع قواي لأجيبك؟

كان أُسلوبه مستفزًا بعض الشئ, ولكن الأطباء خاصة النفسيين

متدربين علي ذلك ولديهم الخبرة الكافية التي تجعلهم يتعاملون بشكل جيد وبتوازن نفسي وثبات إنفعالي علي مستوى عالي

- لا ترهق نفسك كثيراً ، لدينا المتسع من الوقت لنتحدث كثيراً، ولكن أود أن أخبرك بأنك في مشكلة حقيقية، أأنت مدرك لها؟

صمت «آدم» لبضع ثوان ثم أومأ برأسه وشفتاه رافعاً كتفيه لأعلى في إشارة يفهمها الناظر إليه بأنه غير مهتم بمزيد من شعور عدم المبالاة.

قابلته ببضع طرقات بسبابتها اليمنى علي المنضدة في قلق ونهضت بعصبية وقالت، لك مطلق الحرية، سنتقابل غداً في الصباح إن شاء الله ثم خرجت.

***

«الطفولة هي أجمل مراحل العمر التي لا نفطن لها حتى نكبر.. من هنا تصبح الحياة إما وردية أو مأساوية دائمة»

مواصلات مزدحمة.. سيارات المدارس منتشرة في كل شوارع جمهورية مصر العربية.. أجلس بجانب النافذة وأتابع التفاصيل.. رجل يهرول خلف الأوتوبيس أراه يريد ملاحقته وأراه سيورط نفسه في سقوط مهين.. وسيدة تقف منتظرة سيارة المدرسة ترتدي ثياب متواضعة فوق ثياب منزلية ولازالت علامات النوم تظهر علي وجهها المتعب ممسكة بيد طفلها حتى يذهب إلي المدرسة, ولا أرى أي قيمة لما وضعته في وجهها من أدوات التجميل في هذة الساعة الصباحية الباكرة.. طلاب الجامعة يذهبون إلي جامعاتهم ولكني لا أعلم أهم ذاهبون لتلقي العلم علي أيادي معلمينهم أم يقضون أوقاتًا سعيدة مع أصدقائهم شباب وشابات؟ ورجال ونساء في المواصلات كل منهم يذهب إلي قضاء مصلحته.

سيارات مرتصة.. بعضها يصدر إزعاجاً صباحياً معتادًا من خلال آلة التنبيه المزعجة.. وبعضهم يجلس هادئاً في ملل يشبهه.. ومنهم من يتلفظ ببعض الألفاظ البذيئة التي أصبحت من شيم الشباب.. عجائز تمر من خلال الطريق في بطء شديد.. وشباب يمشون كأنهم في سباق عدو.. محال بيع المأكولات والحلويات المغلفة وبائعي الجرائد في حركة ونشاط دائم.. هل كل هذا الصخب والضجيج المزعج الذي يوتر الأعصاب نموذج صغير معنوي يشير إلي حقيقة تلك الحياة العظيمة؟ أتمني أن تكون تلك الأفكار مجرد أفكار مغلوطة وليس لها أي معنى سوى أننا في ازدحام في المواصلات في

ساعة ذروة ليس أكثر.

هنا بوابة سوداء كأيامي التي أعيشها, فناء كبير يتوسط مباني الفصول الدراسية التي تتكون من ثلاثة طوابق دهانها أبيض ونوافذها وأبوابها زرقاء, يتوسط هذا الفناء سارية طويلة يعلوها علم جمهورية مصر العربية, يقفون بجانبه بعض المعلمين ومدير المدرسة, الطلاب والتلاميذ يجرون يمينًا ويسارًا طوال الوقت, وأقف أنا جانبًا منتظراً صافرة مدرس التربية الرياضية ليعلن عن بدء الطابور المدرسي, فأذهب في منتصف الطابور الخاص بصفي الدراسي حتى لا أكون ظاهرًا للمعلمين, ولا أكون عرضة لمرح الطلاب الأشقياء الذين يحتلون مؤخرات طوابير الفصول الدراسية, هذه أجواء تتعب الحالة النفسية وتوترها لأي طالب طبيعي في ساعة صباحية مبكرة كتلك, أو هذه المشاعر التي كانت تنتابني حينها

- هل تراني فاشلًا؟

- ألم تشعر بذلك لأنك سألت سؤال كهذا؟

وسط ضحكات مكتومة كنت أتألم، ولم يشعر بي أحد من أصدقائي التلاميذ، لم أكن مقرباً لأحدهم، وكلهم كنت أود أن أكون مقرباً من إياهم, ولكن لا بأس ولا جديد، سأتجنبهم ككل عام دراسي.

لماذا يتنمر بنو «آدم» على بعضهم البعض؟ لماذا يجب أن يكون في كل تجمع شخص يريد الكل أن يجعل منه مسخه ويكون سبباً في ضحكاتهم المستمرة؟

ألا يوجد حواراً كوميديًا آخر نتناوله كي نضحك كل هذه الضحكات بدون أي تجريح أو تشويه لنفسية طفل مثلي؟

تعاسة بعض الناس تعتبر وسيلة أو سبب من مسببات السعادة عند الآخرين, عندما أمشي يضحكون، لماذا لا ينصحوني بأن طريقة مشي تدعو للسخرية؟ لماذا لا يساعدوني علي استقامة ظهري وأنا أمشي؟ لماذا لا ينبهونني أن يداي تتحرك للأمام والخلف بطريقة مضحكة؟ وإذا تفوهت بكلمة كانت مفيدة أو حتى عادية يضحكون، يريدون أن يستهزءون بي عندما نلهو أو نلعب، اللعنة على هؤلاء الأصدقاء واللعنة علي مدرسة تتبع وزارة «التربية» والتعليم وعلى أساتذة يخطون بخطى التلاميذ ويسعون في السخرية على طفل مثلي, ويسألوني لماذا ترسب في كل مرحلة تعليمية؟

أبداً أحب مدرستي وأحب أساتذتي وأحب أصدقائي الذين يساعدون خلايا مخي ويعطونه مساحة كبيرة من التركيز في دروسي كي أرقى بتعليم وثقافة كبيرة مثلهم, اللعنة عليكم جميعاً.

***

«عندما تتراكم الآلام ولم تتداو, فدماء القلب هي البركان الخامل»

- خدمة عملاء الشركة الألمانية لتجهيزات الفنادق ومعداتها، أي خدمة يا فندم؟

- لقد تم الاتفاق على موعد مع أحد موظفين شركتكم لإعداد مطبخ مجمد ولم يأت أحد حتى الآن.

- هل أخبرتني بإسم الفندق سيدي؟

- ليس فندقاً بعد، هي «ڤيلا السعدني» وسأقوم بتحويلها إلى فندق في القريب العاجل و... هل عرفتني؟

- نعم يا فندم الطاقم المخصص لإعداد غرفة التجميد تحرك منذ ساعتين فقط, فهم علي وشك الوصول إلى منزلك، بعد نصف ساعة إن لم يصل أحد رجاءاً عاود الإتصال مر..... سيدي، آلو، هل تسمعني؟

***

«في المراهقة ... كل شيئ متاح»

حديقة تتزين باللون الأخضر, حقاً مساحتها واسعة, مقسمة لأربعة أجزاء, في كل جزء منهم قصة وحكاية, يتكون الجزء الأول من مستطيل طويل أخضر بجانب البوابة الرئيسية «للفيلا» ويتكون من شجر كثيف جدًا وعالي, هكذا تكون أشجار المانجو المثمرة, على الجهة اليسرى نفس المستطيل ولكنه يحتوي بأشجار الزينة بجانب سور «الفيلا» فقط, ومساحة خضراء تتوسطها طاولة وثمانية كراسي, تستخدم في تناول الوجبات وتلقي دروس الأبناء, في الجهة المقابلة ركن أخضر كبير يحتوي على زهور وورد بألوان وروائح مختلفة ومتنوعة, أما الركن الأخير فكان يحتوي على شواية كبيرة ويظهر الهمال في هذا الركن الأخضر المبتأس الوحيد في «فيلا السعدني».

أعشق درس التاريخ لحبها الدائم لـ «كليوباترا»، فتكتب اسمها دائما علي دفاترها، وترسم عين فرعونية مكحلة بقلم رصاص لتحاكي الحقيقة، صورتها لا تفارق كل الحسابات الخاصة بها علي جميع حسابات وسائل التواصل الإجتماعي، لها صورة ترتدي فيها زي يشبه الزي الفرعوني الأبيض وعلى خصرها حزاماً باللون الذهبي يضفي تناسقاً وجاذبية وقد رسمت على إحدى عينيها رسمة الكحل الفرعوني وأمامها حلويات شرقية ومياه غازية قد لا تناسب زي الصورة؛ ولكن يبدو أنها قد التقطت لها في مناسبة أو في الاحتفال بيوم ميلادها على سبيل المثال.

ولكني أبغضها، وأبغض تاريخها، أم إنها السياسة وألاعيبها؟ أيضاً أبغضها، وأبغض ممارسيها، فهم لا يهتمون إلا بمصالحهم الشخصية،

ويدعون أمام الناس بأن اهتمامهم فقط للصالح العام وللإنسانية، وهم عديمو الإنسانية والإحساس، يتخذونها ستاراً لأغراضهم الدنيئة ولتحترق الإنسانية كلها، الإنسانية عندهم مقوسة كآلة العود الشجي، مقوسة عند قمتها فقط, في منتصفها تحديداً,ومنزلقة من أطرافها، يضرب العازف على أوتارها فترى رأسه قد انتصبت وراحت كأنها تنظر إلى الأعلى رغم انغلاق جفنيه، وعندما يذهب تأثره تراه ينجلي ويبتسم ويتمايل يميناً ويساراً مع أنغامها وهو في قمة الانسجام، أسلوبهم رخيص وكل مبادئهم في القاع أمام مصالحهم، «كليوباترا»... ذات الشخصية القوية اللطيفة الذكية صاحبة الدهاء, التي توسلت إلى «يوليوس قيصر» في محاربة أخيها بعدما طردها من مصر لكثرة خلافهما، لتعود مرة أخرى ولكنها لن تعود بمفردها، بل عادت بـ «قيصر» حتى تصعد إلى الحكم ولا تشغل بالها بغرق أخيها في نهاية المعركة، «كليوباترا»... التي خسر روما لأجلها «ماركوس أنطونيوس»؛ من أهم مساعدي «يوليوس قيصر» وقائد عسكري محنك، بعدما جعلته يتحالف مع «أوكتافيوس» و«لابيدوس» في اغتيال قائدهم يوليوس قيصر؛ وعندما نشبت حرب أهلية وخسرها في معركة أكتيوم البحرية قرر أن ينهي أمره بالانتحار, خاب دهاؤها بعدما ظنت أن زواجها من «ماركوس أنطونيوس» أنه سيحكم الأمبراطورية الرومانية، لعبت على كل الأوتار.. «كليوباترا».

- أين ذهبت يا «آدم»؟

- أبداً.

- من المفترض إني في منزلك ننتظر معلم التاريخ، وأنت تتركني

بـدون أن تتفـوه بـأي كلمـة, أكاد أشـعر بالاحـراج وعـدم رغبتـك في وجـودي بالمنـزل، أقصـد فيلتكـم.

- أبداً كنت أفكر في «كليوباترا»

بسـمة «آدم» كانـت في حـرج، فيعلـم أنهـا تحـب «كليوباتـرا» وهـو يبغضهـا فكيـف يواجههـا ؟؟

- أتحب «كليوباترا»؟

سـألته في شـغف لتعـرف قـدر «كليوباتـرا» عنـده.. وبعـد أن ظهـر عليه ملامـح الـتردد والارتبـاك, فـرد السـؤال بنفس السـؤال

- أتحبينها؟

- لا , بل أبغضها.

ظهـرت نواجـزه وأخـذ يـضرب رأسـه فرحـاً لتوافقهـا معـه، وبعـد أن ظهـرت مشـاعر الدهشـة تبدلـت بمشـاعر ارتيـاح ورغبـة في التحـدث, ورغبـة أكـبر وتمنـي اعتـذار معلـم التاريـخ عـن درس اليـوم الخصـوصي لينفـرد بصديقتـه الوحيـدة الجديـدة «حيـاة»

- ظننتــك تحبينهــا، دائمــا ترســمين عــين فرعونيــة مكحلــة، وصــور حسـاباتك عـلى شـبكات التواصـل الإجتماعـي تملؤهـا صـور «كليوباتـرا»

- تتابع حسابات التواصل الإجتماعي الخاصة بي؟

- فقط مرة ؛ أحياناً قد تظهر لكِ حسابات أشخاص ربما تعرفهم في خانة جانبية؛ أو الأصدقاء الذين قد تربطك علاقة بهم أو تعرفهم؛ فظهرت لي ذات مرة وتصفحتها فحسب.

- أنا فقط أحب كل ما هو فرعوني، تجذبني ملابسهم وطريقة تجميل النساء بعضهم البعض، حليهم، أبنيتهم، ولكن الحق أقول أنا لا أعرف أي شئ عن أسمائهم ولا تاريخهم سوى الذي ندرسه، وفي العام القادم سأنسى بالطبع، أنا حقاً إهتماماتي مختلفة، أستاذ فتحي قادم، استعد لأسئلته السخيفة على مدار ساعتين من الملل.

***

«آلامنا تقتلنا ببطء, تجعلنا في حالة لا مبالاة دائمًا, كصورة بالألوان ولكنها دون تأثير»

في صباح يوم جديد، ارتدت دكتور هدير بنطالاً لونه أسود فضفاض قليلاً، ووقفت قليلاً تفكر في قميص ذي لون مختلف غير اللونين الأسود والرمادي, وكأنها تذكر نفسها بأنها أنثى يجب عليها تغيير أسلوب ملابسها كي لا تنسى أنوثتها، بالرغم من بضعة أيام مضت لم تحتفل بعيد ميلادها الثالث والثلاثين، إلا إنها تحاول الإنكار لاحتياجها لرجل في حياتها تحبه ويحبها، يكسر رتابة حياتها ويخرجها من وحشة الوحدة إلى نور الونس, وبالرغم من وجود شخص في حياتها, لكنها تشعر دائماً أنه في احتياج لها أكثر مما تحتاجه, يحبها أكثر مما تحبه, فتأتي الأمور دائماً مخالفة لرغباتها, هذا هو الإنسان, يميل دائماً لما يهرب منه, لما يمتنع عن تحقيق رغباته, سواء هو أم هي أصبح هذا السلوك الذي يربط بك حبيبك, يأتي شخص ويتصل بك رغبة منه في التحدث إليك استئناساً بك, فلا ترد, ذلك سيلهبه شوقاً لك, ولا تقلق من عدم الرد عليه, سوف يتصل بك مراراً وتكراراً, وعندما يطلب منك فعل شئ, تغافل عنه, اجعله يشعر أنك قد نسيت, أو لم تنساه بل فقط انشغلت بمسئولياتك الكثيرة, لا تنخدع من غضبه أو تأثره, بكلمات رقيقة سيلين كل شئ, وعندما يهدأ, فأنت الآن جاهز لتجرع الحب حتى ترتوي منه.

علي الجانب الآخر, إذا أعطيت كل ما تمتلكه لمن تحب, سيصبح الأمر بالنسبه له عادة وحق مكتسب, إن لم تقدمه له فسوف تُلام, وستصبح كئيباً, ومن الاحتمال أن تُهان وتُتهم بعدم الإحساس

والشعور وشخص ليس له كرامة.

أفكار وأسئلة كثيرة وحوارات عديدة تتضارب وتتصارع بداخل عقلها الذي لا يهدأ تفكيراً, لماذا لم أشترِ في الأسبوع السابق أدوات تجميل؟ منذ زمن سحيق لا أستعملها, كانت فرصة عظيمة في مناسبة باهتة قد تكون لها قيمة, أعتقد سوف تختلف شكل يدي عندما أطلي أظافرها بطلاء سماوي, قليل من الأشياء التي تجعل بشرتي تميل إلي حمرة خفيفة, وعيناي سوف تتألق إذا أضفت لها كحل أسود, لماذا لا أستخدم العدسات اللاصقة الطبية الملونة؟! وهذة الخصلات البائسة تحتاج إلى لون بني فاتح حتى تكتمل لوحتي الفنية, أنا لم أتغير ولم أشتر تلك الأشياء التي سوف تأخذ من وقتي ووقت مرضاي.

لماذا لم أشتر حلوى عيد الميلاد؟ شمعتان تحملان أرقام عمري, وزجاجة مياة غازية, وإضاءة مغلقة, وأغني لنفسي أغاني الميلاد المبهجة, هذا أيضاً سيتطلب وقت كبيراً.

لا بأس اليوم من ارتداء القميص الرمادي والمعطف الأسود، فاليوم عاصف واحتمالية سقوط الأمطار محتملة، نظارتي الشمسة المقدسة التي تخفي نظرات عيناي، فلا يجب علي مرضاي ملاحظة أي علامة من علامات التوتر أو التفكير في شئ وهم يتحدثون عن مشاعرهم ومشكلاتهم، حقيبتي الكبيرة وحذائي البسيط، كل شئ علي ما يرام وعليَّ نسيان هذا الهراء الذي صارع عقلي منذ قليل.

لابد من التأكد من مرض «آدم»، ولابد من أن يتحدث ويخرج ما بداخله، متناقض هذا الآدم، نحيف وتميل بشرته إلي السمار وشعره غير مرتب دائماً ولا أعتقد إن عُرض على أكبر صالونات

تزيين الشعر الرجالي سينهون عملهم بشكل مختلف عما هو عليه، عينان ضيقتان يعلوهما نظارة طبية ذات إطار فضي رفيع، أنفه بارزة وفمه واسع ذو أسنان بارزة، تفاصيل شكله تدعو للضحك والسخرية بالرغم من لباسه الأنيق ذي العلامات التجارية العالمية الغاليه التي تشير إلي أنه من مستوى أرستقراطي، هل تعرض للسخرية من شكله أو طريقة مشيته المتمايلة فتركت أثر سئ علي نفسيته؟ أم يصطنع مرضه ليخرج من المشكلة؟ عندما تنظر إليه لا تتوقع أبداً أنه حاد الذكاء ليقوم بالادعاء والتمثيل لهذه الدرجة؟ ولأنني أعرف عنه الكثير, لكني أود أن أرى حقيقة مخيلتي قريباً, وسيتضح أمره مستقبلاً فلا داعي للاستعجال.

***

«آدم»

شريط ذاكرتي لا يهدأ أبداً، تبولي اللا إرادي لم يُقنع «عزت» أنه بسبب نفسي، ربما يكون بسبب فقدان الوالدين في حادثة الساحل الشمالي ونجاتي أنا وأخي الأكبر «عزت» الذي يكبرني بأحد عشر عاماً ، كنت وقتها في سن التاسعة، عندما انتقل ميراثنا تحت وصية عمي «إبراهيم السعدني» لمدة عام واحد، حتي بلغ «عزت» عامه الواحد والعشرين حتى أصبح هو وصي على ثروتي التي تبلغ مبالغ كبيرة وسيارة ونصف «الڤيلا» وأرض زراعية في محافظة البحيرة، لازلت أتذكر آلام الضرب المبرح الذي كنت أتلقاه من «عزت» حين أتبول علي فراشي يومياً، بالرغم من وجود الخدم إلا أنه كان يستاء من فعلتي الصباحية اليومية المتكررة، من أكثر الشعور ألماً هو شعور افتقاد شخص عزيز عليك, تشعر بالأمان في وجوده, الطمأنينة, شعور يجعلك لا تهاب المشاكل, فلديك سند تلجأ إليه, أفتقد أمي التي كانت تدللني كثيراً والتي كانت تتغاضى عن كل أفعالي السيئة وكانت دائماً تجد لي المبررات المقنعة لتلك الأفعال، والدي دائماً كان يحرص على أن يحتضني ويحتويني ويتحدث معي بلطف، «عزت» فقط كان مشكلة من مشاكل حياتي الكبرى خاصة بعد وفاتهما، كان ينهال عليّ بالسباب والضرب حتى فقدت الأمان وتعلمت حيل الكذب المقنعة، أنا لم أكن الإنسان السيئ, الذي أنا عليه الآن, هو من صنعكم.

لم يكن وقوفي في الشمس في ظهر يوم حار علاجاً من «عزت» ليعالج تبولي اللا إرادي، إذا كانت مسئوليتي مرهقة له, لماذا لم

يرسلني إلى عمي الوحيد كي يتحمل مسئوليتي؟ فهو يعيش وحيداً وكان سيؤنس بي, لماذا لم يأت بمربية حتى تتولى مسئولياتي وأنا قد حرمت من والديّ في سن صغيرة؟

أصبح كل شيء ممل ورتيب ولكن لا بأس فقد تمتعت بعض الشئ, لا بأس سيتنهي الألم قريباً حتماً لا محالة.

***

«العهد»

ممر طويل, إضاءة خافتة صادرة من ثلاثة مصابيح متدلية من سقف الممر تشع أشعتها الصفراء الضعيفة, أبواب جديدة موصدة على جانبي الممر الذي لا تعرف تحديد لون طلاء حوائطه, أهو أبيض يميل إلي اللون الرصاصي, أم هو مطلي باللون الرصاصي نفسه؟ غرفة تحمل رقم ٥٠١ علي بابها الحديدي الأسود, صوت سلسة مفاتيح حديدية يتبعها صدى صوتي لما فعلته تلك السلسة من ضجيج, يخرج منها مفتاحاً ليستعمله حامله في فتح تلك الغرفة, غرفة ضيقة بعض الشئ, وعائان بلاستيكيان كبيران يمثلان دورة المياة الخاصة بصاحب الغرفة, أحدهما مليئ ببعض الماء وبداخله كوباً بلاستيكياً, والآخر فارغ لقضاء صاحب الغرفة حاجته فيه, ويقوم بتنظيفه قبل تناوله وجبة الغداء يومياً, وكرسياً وفراشاً ينام عليه صاحب الغرفة.

- استيقظ يا «آدم»

قام «آدم» بكل هدوء قائلاً ببطء

- مستيقظ بالفعل, ماذا هناك؟

- دكتور «هدير» بالخارج تنتظرك

- لماذا لم تكن عنيفاً كما نراكم في التلفاز

قالها للممرض الموكل باحضاره في محاولة لاستفزازه لسبب لا يعلمه إلا هو.

- تريدني عنيفاً

- أريدك طبيعياً

فتعالت ضحكات «آدم» الاستفزازية

- أتراني مختلاً مثلك؟

هنا قد ضحك «آدم» بصوت أعلى مع تصفيق حار موجهاً له

- اظهر على حقيقتك أيها العنيف المستتر خلف الشخصية المتواضعة الكاذبة

- لن أتحدث لك مرة ثانية، فقط اذهب لمقابلة دكتور «هدير» ومن الأفضل ألّا تتحدث معي مرة أخرى

قالها الممرض الخاص والمسئول عن مجموعة من غرف المرضى الخطيرين المقيمين بمشفى خاصة للأمراض النفسية والعصبية التابعة للأمانة العامة للصحة النفسية ووجهه يظهر عليه ملامح الاستياء, كأنك تشعر أنه كان يحمل «لآدم» مشاعر طيبة أو متعاطفاً معه ولا يتوقع منه تلك المعاملة حتى صُدم من فعلته .

«هدير» تلك الطبيبة النفسية التي ترى في نفسها الساحرة العارفة التي تعتقد أنها سوف تكتشف عقدتي وتشعر بآلامي وتريد معالجتي وتخفف عليّ أحكامي، متوهمة، فأنا أريد تلك النهاية وسعيت لها بكل جهدي وراضي تماماً عما فعلت، ولو كانت هناك عودة للماضي مرة ثانية, لكررت ما فعلته سابقاً بنفس الاتقان, ربما سوف أجهز له حتى أتقنه أكثر مما سبق.

امـرأة نحيفـة لا تظهـر نظارتهـا السـوداء أي ملامـح عـن شـخصيتها، تريـد أن تخفـي انفعالاتهـا, جبانـة، لا يظهـر منهـا سـوى أنفهـا الصغـير وفمهـا المتوسـط ذو الأسـنان البيضـاء الناصعـة، تـرى أنهـا تعـاني مـن داء النظافـة الشـخصية المفرطـة؟ لذلـك قـد يكـون السـبب في بيـاض بشرتهـا ؟ كل ذلـك بالنسـبة لي لا يهـم, يعجبنـي شـعرها المموج، ولكـن هيئتهـا كئيبـة بالنسـبة لي مـن اختيـار ملابـس ذات ألـوان داكنـة

- كيف حالك يا «آدم»؟

- لا بأس، أنا على خير حال

وبعـد صمـت سـاد لدقيقـة ونصـف قامـت دكتـور «هديـر» تتفحـص ملامـح وجـه آدم وانطباعاتـه مـن خلـف نظارتهـا السـوداء ولكنهـا رأت ثبـات حـاد في ملامحـه وهـو ناظـر في اتجـاه آخـر

- أتحب أن نتحدث سوياً؟

انفجـر «آدم» في ضحكـه الغـير مـبرر ووضـع يـداه عـلي رأسـه ماسـحاً عـلى شـعره قائـلاً

- أتيتِ اليوم لتتحدثي معي، فما بال رأيي إذن !

أنا لا أريد التحدث معكِ

قالهـا متحديـاً كي يـرى رد فعلهـا ونظـر إليهـا حتـي قـال بصـوت منخفـض:

- ستتركيني إذن؟

- نعم سأتركك، ولكن قبل أن أتركك أريد معرفة شئ واحد فقط

هل لا تريد التحدث معي لأنني شخص غير مرغوب فيه أم لا تريد التحدث من أجل التحدث فقط؟

أعلم أنك تتحدث كثيراً بداخلك، وأعلم أن بداخل رأسك الكثير من الأسئلة التي لا تجد لها تفسيرات ولا إجابات مقنعة، أنا هنا فقط لكي أساعدك لا غير، أترك القضية جانباً, فأنا كل ما يهمني فقط هو «آدم» ولا أرضى له الألم .

عاد للخلف رافعاً رأسه لسقف الغرفة واضعاً يديه على وجهه ثم قال:

- أنا أستحق .

أخرجت هنا دكتور «هدير» قلمها وأخذت تدون شيئاً ما في أوراقها

- ماذا تستحق ؟

- أستحق ما أنا فيه حالياً، لا لا لا أنا لا أستحق شيئاً سيئًا، قد استعدت مديونياتي فقط.

- دعنا نتفق على شئ، أم تريدني أن أذهب؟ فعدم رغبتك في وجودي واضحة مثل وضوح الشمس.

- ماذا تريدين أن نتفق عليه؟

- واضح أن المفاجآت والأشياء الغامضة تثير فضولك.

- إذن إذهبي.

- لقد سمحت لي بالجلوس وأن أعرض عليك إتفاقي مسبقاً، وأنا قد قبلت

تخيل وجودي هنا شئ غير حقيقي، فقط اجعلني ضميرك وتحدث عن آلامك، وأنا بطبيعة عملي سأسعى لتخفيف تلك الآلام

ألا تريد أن ترتاح من آلامك ولو قليلاً؟

- لقد أصبحنا أصدقاء

- وهذا يشرفني

- لم أقصدك، بل أقصد آلامي

دونت دكتور «هدير» في ورقتها جملة (آلامه الشديدة جعلته عميقاً)

- وهل صداقتك للآلم قد رأيتها مفيدة؟ أم إنه صديق مزعج ؟

- أسوأ صديق على الإطلاق.

- إذن تخلص منه.

- وهل منا عاقل يريد مصادقته؟

- عظيم، إذن أنت عاقل، والعاقل هو من يتخلص من أي شئ سلبي قد يضره

- حاولت ولكنه متمسك بي منذ الصغر.

- إذن نتوقف هنا، ولنفكر في جميع الآلام التي قد سببها لك هذا الصديق المزعج، حددها بدقة إذا سمحت كي نتخلص من ازعاجه رويداً رويداً, حتى نتخلص منه تماماً.

- تريدين أن أتحدث وعندما أتحدث تتركيني؟

- أريدك أن تضع كل تركيزك فيما قلت وتبحث في أعماقك على كل ما سببه هذا الصديق المزعج لك من الصغر حتى اليوم، وأريدك أن ترتاح قليلاً, سأكتب لك دواءاً يساعدك على التركيز ويجعلك هادئاً لفترات طويلة صافي الذهن, ساعد ممرضك على تناوله ولا تهرب منه أو تلقيه في أي مكان دون أن يشعر لأنني سوف ألزمه بالتأكد من أنك تتناوله أمامه, وسأعنفه إن قصر في تلك التعليمات, فلا تتسبب له بالضرر إذا سمحت .

(ملحوظة)

البكاء لا يقلل من قيمة الرجال، بل يثبت لهم إنسانيتهم، أراك بعد يومين، إلى اللقاء.

- إلى اللقاء أيها الضمير المؤلم.

- دكتور «هدير»، الضابط «حمدي الشاذلي» قد أجرى اتصالاً وترك لكِ رسالة في قسم الاستقبال مفادها أنه يريدك أن تذهبي إلى مكتبه اليوم بعد الانتهاء من الزيارة.

قالها الممرض بجدية والتزام وبوجه عابس قليلاً, ودخل مسرعاً إلى «آدم» كي يأخذه إلى مستقره.

يعجبني الإخلاص في العمل, ولكن ليس إلى هذا الحد, هذه أول مرة, ولكن لابد أن يعلم أنه يعمل مع طبيبة نفسية خبيرة بنفوس البشر من خلال تصرفاتهم أو حتى من تعبيرات وجوههم, كأنه يرصد تحركاتي داخل المشفى كلما أجلس مع «آدم» يخبره شخص ما بزيارتي له, ومن ثم يخبرني أحدهم بأن الضابط «حمدي» يريد مقابلتي, هذا توقع فقط ولكن تكراره سيكون تأكيدًا لما توقعت.

وبعد التحرك بالسيارة, وتغيير خط سير يومي بالذهاب إلى مكتب الضابط «حمدي» راودتني فكرة بخطورة أن تعلم كل ما يجري حولك, من المهارات النقمة التي يكتسبها طبيب متخصص في الأمراض النفسية والعصبية هو مدى قدرته على قراءة الأشخاص, يكذبون عليك وأنت فقط من تعلم كذبهم, وتدعهم يكذبون حتى تعطي عقلك المساحة الكاملة للتصرف مع هؤلاء المزيفين, وإن صدقوا أيضاً, لديك القدرة على تقييم نسبة صدقهم, هذا بائع غشاش وهذا أمين, هذا متحرش يرتدي ثياب التواضع أمام الناس ويفعل الأفاعيل في خلوته, هذا خائن, هذه وصولية, هذا أمين, هذه مسكينة, هذا... هذه...., هذا مؤلم حقاً ولابد من تجاهل تقييم وتحليل الناس إلا عند الضرورة فقط.

- مرحباً دكتور «هدير»، كيف حالك؟

- مرحباً ، على خير حال.

- هل من جديد في الحالة التي تتابعينها؟

- بدأ يثق بي, وبدأ يتكلم ويخرج ما في وعائه شيئاً فشيئاً، ولكي

ثقتـه بي تزيـد تركتـه يومـين يفكـر في أسـباب مرضـه.

- إذن هو مريض؟

- لم أتأكد بعد.

- ومتي تتأكدين؟

- سـيدي، الأمـراض النفسـية قـد يطـول زمـن معرفـة تشـخيص المـرض وكذلـك علاجـه، الأمـر ليـس مرهونـاً بوقـت، والأمـر أيضـاً يبنـى عـلى مـدى ثقـة المريـض بطبيبـه، وقـد بـدأت باكتسـاب هـذه الثقـة، فـلا داعـي للاسـتعجال ودعنـي أرى وأمـارس عمـلي دون أي ضغـوط أو اسـتعجال.

- مفهـوم يـا دكتـور ولكنـي فقـط أقـوم بواجبـي، فقـط أطلـب مـن حضرتـك أن تمدينـا بـأي معلومـات قـد تغـير أو تفيـد في القضيـة.

- بالطبع سيدي، هل من شئ آخر؟

- لا، أنتِ حرة الآن تذهبين إلى أي مكان تريدين

وهـل أنـا متهمـة أو سـجينة كي تقـول لي لفـظ حـرة؟ أنـا أعلـم بأننـي حـرة وأعلـم أننـي إذا شـئت أن أذهـب إلى أي مـكان سـأذهب، لابـد مـن عـرض ظبـاط وأفـراد جهـاز الشرطـة عـلى أطبـاء نفسـيين كل سـتة أشـهر عـلى الأقـل لمـا يشـاهدونه يوميـاً مـن جرائـم قتـل واغتصـاب وسرقـة و.....

قالتهـا دكتـور «هديـر» في نفسـها قبـل أن تودعـه مبتسـمة ابتسـامة صفـراء مرغمـة عليهـا، إلى اللقـاء.

«التنفيذ»

- سأقوم هنا بعمل فندق، وقررت أن يكون مطبخ الفندق بالدور الأعلى، الجانب الأيمن سيكون المكان المخصص بتخزين اللحوم المجمدة، والجانب الأيسر سيكون مطبخ الطهي، كما تعلمون غرفة التبريد تكون داخل غرفة أخرى وهي غرفة الثلاجة، إذن سنقوم بعمل الغرفة الأولى بتجهيزها كثلاجة، والغرفة التي تليها والتي تمكث بداخلها ستكون غرفة التبريد، أريد أيضاً بداخل غرفة التبريد عمل غرف كثيرة، لكي أفصل بين لحوم البقر ولحوم الجاموس ولحوم الدواجن.

شرح «آدم» للفريق المخصص بعمل غرفة التبريد شرح دقيق ووافي بعد حضورهم إلى «ڤيلا عزت السعدني» بإحدى شوارع منطقة السادس من أكتوبر, وطالبهم بسرعة الإنجاز لأنه مرتبط بمواعيد أخرى لتجهيز وتحويل «الفيلا» إلى فندق في وقت قياسي.

***

«صدام نفسي»

مطعم ومقهى مزدوج, حديقة صغيرة جداً باللون الأخضر المهدئ للأعصاب, بوابة ونوافذ زجاجية لامعة من شدة الاهتمام بنظافتها, طاولات دائرية خشبية مطلاة باللون الأبيض, وكراسي ذات ألوان مبهجة مختلفة ومنتشرة في أرجاء قاعة الطعام, الورد والزرع الأخضر منتشر هو الآخر في كل مكان, ومكان بالخارج مخصص لانتظار السيارات على يسار المطعم, وبالرغم من نظافة المطعم وترتيبه المنمق والألوان الجذابة المبهجة, إلا أنها كانت تستشعر الكآبة وكان ينتابها إحساس بضيق الصدر أثناء جلوسها مع دكتور «عاصم» لا .

- كيف حالك يا دكتور ؟ ؟

- أنا بخير حال, ولكني أود أن تخبرني بأمر ما، هل بعد زواجنا «إن كانت تجربتنا موفقة» ستقول لي يا دكتور؟

- بالطبع لا، لأنك ستكونين سيدة وملكة منزلنا، أنتِ فقط ستقولين لي يا دكتور «عاصم».

- كما توقعت تماماً.

قالتها متنهدة تبعد زفيرها ناحية اليسار.

- هل حان وقت الكآبة؟

- أنت من تستدعيها.

- أقول لكِ ملكة وتتهميني باستدعاء الكآبة؟

- هـل تسـخر منـي؟ هـل تـراني مراهقـة؟ لعلمـك ، صرت لا أضفـر خصـلات شـعري منـذ أكـثر مـن عشريـن عامـاً

- هل تهدئين قليلاً ؟

- هل تراني قد جننت؟

- إطلاقـاً، بـل أرى أن العصبيـة قـد بـدأت تتملـك منـك، نحـن نتكلـم بألسـنتنا فقـط، نتناقـش، نقـرب وجهـات نظرنـا مـن خـلال المناقشـة حتـى نصـل إلى نقطـة وسـط يصـل إليهـا كل منـا بـكل الرضـا.

- هل أوصلتني إلى المنزل؟

- هل شربنا ليمون أولاً؟

- اشربه بمفردك، أريد أن أستريح قليلاً

قالتهـا دكتـور «هديـر» وهـي قائمـة تاركـة دكتـور «عاصـم» بمفـرده، أدلفـت إلى سـيارتها الرماديـة ورجعـت إلى الخلـف وهـي جالسـة عـلى مقعـد القيـادة في حالـة مـن عـدم التركيـز والتشـوش تحـدث نفسـها

ظهـر عـلى حقيقتـه وأفلـت القنـاع منـه دون أن يـدري، كيـف كانـت درجاتـه في الثانويـة العامـة, تعـدت التسـعين بالمئـة؟ وكيـف درس بكليـة الطـب؟ كيـف يدعـي حبـه للقـراءة والثقافـة ولا يـزال يفكـر بعقليـة السـبعينات؟ هـل يريـد أن يتـزوج مـن امـرأة تجلـس تنتظـره طـوال اليـوم بعـد أن رتبـت منزلهـا وعطرتـه لـه كي يسـعد عنـد قدومـه للمنـزل بعـد عمـل يـوم شـاق؟ يلهـو مـع أبنائـه بعـد مـا ينتهـي مـن الاسـتحمام بالمـاء الدافـئ بعـد أن قمـت بتجفيفـه وتعطـيره وتحضـير

الصابون السائل ذي الرغوة الكثيفة داخل حوض الاستحمام وتشغيل سخان المياه حتى تكون المياه ساخنة عند قدومه, وتعليق ملابسه الداخلية خلف باب الحمام؟ حينها يجب أن يكون الطعام ساخناً ومنمقاً على طاولة الطعام، وقبل أن ينتهي أكون قد أحضرت له كوباً من الشاي الساخن، وينهال علي بأسئلة مثل كيف كان يومك اليوم يا حبيبتي؟ هل من إتصالات جاءت في فترة عملي؟ ولمن تحدثتِ؟ ونجلس سوياً أمام التلفاز حتى يخلد إلي نومه حتي أيقظه في الصباح بعد أن أعددت فطوره، هكذا تكون الملكة في وجة نظره؟ لما لا يستأجر خادمة تقوم له بكل هذه الأمور، أصبح الأمر واضحاً، لم ألتقِ بمن يسمح لي باستمرار حياتي كما هي، كما عرفني هكذا، كما أحبني هكذا، العزوف عن الزواج أفضل بكثير مما سأذهب له في مملكته الخاصة.

***

«بدايات الألم..الطفل آدم»

لابد في بداية هذه السنة الدراسية الجديدة ألّا أسمح لأحد بالاستهزاء بي، فأنا قد أكون أكبرهم بسبب رسوبي العام السابق.

ترجلت وأخذت فرجار أخي دون أن يشعر, استيقظت من نومي مبكراً خصيصاً لأحتوي عليه, وقفت عند بوابة «الفيلا» أنتظر حافلة المدرسة ولكن يتبقي على قدومها ثلاثون دقيقة ومازال هناك وقتاً كافياً للعبث, أخذت أفتح الفرجار وأقتربت من إحدى السيارات التي كانت تقف في الشارع ووجهت سن فرجاري عند باب السيارة أحكها ذهاباً وإياباً, كان صوت الحكة يشعرني بلذة, فقد استيقظت مبكراً لأفعل ذلك بعد أن راودتني تلك الفكرة العبثية أثناء نومي, بعد أن تلف طلاء السيارة, أخذت أفعلها مجدداً في ثلاث سيارات أخرى, حقاً كانت تجربة ممتعة أخاف أن أملها, طوال ساعاتي أقضيها خائفاً مقهوراً, فلأقهر وأتحكم وأفعل ما يحلو لي الآن, أي متعة أخرى تشبع ذلك الاحساس؟

أيضاً سوف يجعلني أتشجع أكثر حتى لا يسخر مني أحد في المدرسة بعد الآن, ولكن يجب عليّ ألّا أستخدمه ضد أحد حتى لا يعود علي بالضرر من أمي, نعم تدللني وتتغاضى عن أخطائي, ولكن لا أضمن حالتها المزاجية, إن كانت متوترة فسألقى من العذاب حتى تشبع فيّ رغبتها وتهدأ.

لم يكن هذا سبباً واقعياً في الحفاظ على وضعي داخل المدرسة، فمع أول يوم دراسي قالت لي معلمتي

- أهلاً يا «آدم»، أتمنى العام القادم أراك قد انتقلت للمرحلة

التاليــة في تعليمــك

انتابنــي شــعور جيــد حــين ســمعت كلــمات التشــجيع التــي لم اعتــاد عــلى ســماعها مــن قبــل، وشــعرت بأننــي قــد أنجــز عامــي الــدراسي هــذا بتفــوق غــير مســبوق، ولكنــي تحطمــت حــين أكملــت كلماتهــا

- لقــد مللنــا منــك ومــن غبائــك ولا نريــد رؤيتــك أكــثر مــن ذلــك، إذا كانــت لديــك المقــدرة للانتقــال إلى مدرســة أخــري فأخــبر والديــك عــلى الفــور بهــذا الاقــتراح ســيكون خــيراً لــك ولنــا.

انفجــرت ضحــكات الزمــلاء وجعلتهــم ينظــرون إليّ في ســخرية، ســأكون أضحوكــة الفصــل لا محالــة.

عنــد عــودتي إلى «الفيــلا» كنــت في حالــة مذريــة حينهــا، أخــذت ببغــاءاً مــن محبســه ومــن وســط عائلتــه وذهبــت بــه إلى الحديقــة مختبئــاً خلــف شــجرة كبــيرة لا يــراني أحــد ومنفــردًا بــه, أخــذت أشــد ريشــه ريشــة تلــو الأخــرى, وفي كل ريشــة أنتزعهــا مــن جســمه الضئيــل أســمع لــه أنينــاً يســعدني, كأنــه يمثلنــي, أنــا الضعيــف الــذي يكــون متاحــاً لأي إنســان أن يســخر منــه ويهــين كرامتــه بــلا احســاس, كنــت أشــعر أني اســترد حقوقــي منــه, كأنــه أحــد أصدقــائي أو معلــماتي الذيــن آذوني, بــدأت بنــزع ريــش جناحــه الأيمــن حتــى جردتــه تمامــاً مــن أي ريــش, ثــم كــررت مــا فعلتــه في جناحــه الأيــسر, ثــم تركتــه وأمرتــه أن يطــير, فضحكــت ضحكــة بصــوت عــال فأسرعــت بكــف يــدي اليمنى عــلي فمي حتــى لا يفطــن لي أحــد, فاستشــعرت بقايــا ريشــه بفمــي فتأففــت مــن ذلــك الشــعور, فبصقــت عليــه وقمــت بســباب أمــه بصــوت منخفــض حتــى رفعــت قدمــي اليمنــى حتــى أصبحــت فوقــه تمامــاً, ثــم ضغطــت عليــه ببــطء شــديد حتــى أحكمــت عليــه بقدمــي واستشــعرت عظامــه,

عندما سكنت آلامه شعرت بلذة ومتعة وشعور بالنصر.

كانت طفولتي تمثل مرج البحرين, نصفه مالح والنصف الآخر عذب, فنصفي عميق والآخر مهان,عندما كبرت، استشعرت بغرابة تفكيري عندما كنت طفلًا، كيف لطفل في صغر سنه أن يفكر بعمق هكذا، كنت لا أشعر برغبة في شكوى المعلمين ولا الطلاب، وهل يجدّ جديد بعد شكواهم؟

إن اشتكيت الطلاب فكانت النتيجة لا تفعلونها مرة ثانية وربما سيلقون عليه بعض اللوم وأنتهي، وبعد فترة سيعودون من جديد وربما أقوى من أول مرة.

وإن شكيت المعلمين، سيكون رد فعلهم أنهم فقط كانوا يمزحون معي ويشجعوني ويحمسوني بطريقتهم، وبعد فترة سيمزحون كثيراً.

كيف تسكن تلك المشاعر السيئة بأجسادنا وتقع بنا في الخطايا آلاف المرات؟ كيف يشعر إنسان بإنه فجأة شعر باحتياج للترفيه عن نفسه بسخرية وتدمير شخص آخر؟ إذا شعر كل منا بحساب للآخر وفي فن اختيار الكلمات والأسلوب قبل أن يتحدثوا فقط.. لكن الوضع مختلف في عالم هذا البشر الشرير.

يصفون الحيوانات علي أنهم مخلوقات دونية عن بني البشر، وما رأينا منهم غير الرحمة، لا تحدثني عن المفترس منهم فكل منا له غريزة يشبعها بطريقته مثل الأكل وتكوين الثروات والجنس وغيرهم. هم رحماء ببعضهم البعض، ومنهم من وعى علي فكرة الارتباط بالقبيلة حتي الممات، ومنهم من أسس عادته كعادة ذكرى أربعين يوماً بعد وفاة المتوفي منهم كالغربان وهي تتجمع

عـلي شـجرة المتـوفي بعـد وفاتـه بأربعـين يومـاً ويصيحـون صيحـات الحـزن والألم عـلى وفـاة فـرد منهـم، لا تتحدثـوا عـن الحيوانـات، أنتـم المكرمـون في الأرض، وهـم الرحـماء.

الأمـر حقـاً جـد، ولقـد سـئمت مـن الوضـع الـذي عليـه الآن، سـئمت نفـسي ولابـد أن ينتهـي كل شيء عـلى مـا يـرام، ذلـك مـا كنـت أعانيـه منـذ الطفولـة ولابـد أن أعـترف أن هـذا هـو الألم الأول في حيـاتي.

***

«تصحيح مسار»

غرفة مظلمة يتخلل نافذتها إضاءة القمر المكتمل، يدخل الهواء بقوة كأسد طال صبره في الإنقضاض على فريسته وحان وقت التهامها بعد عدة أيام قضاها بدون أكل ولا طالت معدته إحساس الشبع، صوت موسيقى (چاز)، مستوى الصوت في أعلى معدلاته، ملابس يغلب ألوانها اللون الأسود متناثرة على أرضية الغرفة، أدراج مفتوحة، وسرير ملقى علية جسد «هدير»، هكذا يمكنها التأمل بأحوالها مختلية بنفسها خلوة الصفاء والصراحة والمواجهة، وهكذا تهدأ.

- هل أنا أبدو عصبية هذة الأيام؟

- هل أفكر في مستقبلي المهني الذي أؤمن بأهمية دوره في حياتنا؟

- أحب عملي وأفضله وأضعه في أولى اهتماماتي؟

- هل أنساني العمل حياتي ونفسي؟

- هل الحب مرتبط فقط بالعطاء دون أي مردود من الطرف الآخر؟

- أعطيه وقتي وعقلي ونفسي وحفة من المال، وأنساني حياتي كأنثي والرغبة بالزواج والاستقرار كأي إنسانة، وأن يكون لي أولاداً وأصير أماً، يعطي لنا العمل سيارة وبيت آمن مرفه وبضع من المال ووضع إجتماعي جيد.

رنين هاتف كادت أن تسمعه لولا هجوم أفكارها المتوهجة بداخلها حتى تفاعلت معه وأخذ صدرها يعلو ويهبط من سرعة تنفسها

حين انفعلت

- ولا أعطيه أي إهتمام, ولم أحاول أن أتقرب له، أصده في كل مرة ولا يزال صابراً معي، لو كان هذا خطأي فلابد أن أصلحه، وهذا هو الحب، الحب الذي يجعل حبيبه يقدر ما أنت فيه ويتجاوز عن سخافاتك ويحاول أن يتشبث بيدك لتستقيم عليها من جديد.

بعد أن انتهت المقطوعة الموسيقية، وقبل أن تبدأ التالية، عندها فقط سمعت رنين هاتفها فانتبهت.

- مرحباً

- مرحباً يا دكتور

ضحكت بغيظ ولكنها اعتدلت وقالت بصوت فيه راحة :

- «عاصم»

فسمع حفيف ضحكتها فاستغل الموقف في أن يداعبها :

- إذن لم تكوني تحبين مهنتك فاختاري إذن مهنة أخرى لألقبك بلقبها .

فردت بسخرية يشوبها القبول للنقاش مرة أخرى ولكن بطريقة أهدى من الأولى.

- ملكة

فكرت في الأمر رأيتك لا تصلحين إلا ملكة, فأنتِ ملكة ملوك الدنيا.

- «عاصم» أعتذر لك, أنا فقط مضطربة واحتاج إلى المساندة .

- أقدر ذلك

- وأنا أقدره أكثر منك، أعدك بأنني سأكون لطيفة في المرة القادمة

- أنتي دوماً لطيفة، ولكن انتبهي لهاتفك المحمول، فقد أجريت أكثر من عشرين اتصالاً وقلقت من عدم ردك.

- سأفعل من هذه اللحظة

***

«المراهق آدم»

- هل تأتي معنا غداً ؟

- موافق، ولكن إلى أين؟ ومن أنتم ؟ مع من أقصد؟

- أنا وأصدقائي المقربون، في كل يوم خميس نقيم حفلاً في منزل أحدنا، وفي كل مرة أحد منا يقوم بتحمل تكلفة الحفلة كاملاً.

- تكاليف الحفلة؟ تقصدين حلويات ومشروبات غازية؟

مالت عليه «حياة» قليلاً وبصوت منخفض كمن يفعل شئ مخل يخجل منه, ولكنه يحبه في نفس الوقت، وقالت في دلال:

- وغير غازية.

الفتاة التي كانت تتلقى الدرس معي في «الڤيلا» كل هذه السنوات والتي أعرفها منذ الصغر تشرب الخمر في المرحلة الثانوية؟ تلك الفتاة صاحبة الشعر الطويل الأصفر المضفّر كمثل شعور فتاة افريقيا، صاحبة القوام المنمق صارت تتدلل وتتوهج أنثوتها حتى استقرت عند شرب المسكرات؟ وما خفي ّكان أعظم، هذا العام أصبحت متوهجة أكثر، صار لباسها ما بين ضيق وعاري، في مرة جعلتني أشاهد وشمها الجديد التياختارت مكانه أسفل أذنها اليمني، وأقراط في أماكن كثيرة وغريبة.

وبعد ثلاثة أيام سأبلغ عامي الواحد بعد العشرين, بعدها لم يكن أحد واصيًا عليّ, فاللعنة على «عزت», اللعنة على المعلمين, اللعنة علي الأصدقاء, اللعنة علي الجميع والويل لكم, فمستقبلكم معي

غير مبشر بخير.

- بعد كل هذه السنوات قررت أنا وبكل تواضع أن أسمح لك أن تكون فردًاواحدًا منا, هل ستأتي؟

- نعم, وبدون تفكير

- ولكن لن أخبرك بشريعتنا, المنضم إلينا جديداً هو من يتكلف بتكاليف الحفلة كلها معلناً تشرفه للانضمام إلينا.

- وكم تتكلف الحفلة؟

- فقط ثلاثة آلاف جنيه، مبلغ قليل بالنسبة لك.

- لا عليك، متى أحضرهم؟

- الآن، كي نعد العدة

- حسناً

***

«تجهيز محكم، لتنفيذ غاضب»

- لقد انتهينا سيدي، غرفة التبريد والثلاجة يعملان بشكل جيد جداً وتم توصيل مولد الكهرباء وتم اختباره ويعمل هو الآخر على نحو جيد.

- جيد جداً، أشكرك مهندس ...

ظهرت تجاعيد وجهه فقط تسأله عن الاسم

- «مجدي»

- أشكرك سيد «مجدي»

- العفو, ولكن لدي سؤال، لماذا وضعت حوض إستحمام في غرفة التجميد؟

التفت إليه في ثبات

- لأنني سأطهو لحماً بطريقة من ابتكاري تلزمني بالاحتفاظ بذلك حوض الإستحمام داخل غرفة التجميد.

- هل أخبرتني عنها؟

نظر إليه في استنكار

- أعلم أنها من ابتكارك وبالطبع ستكون جديدة، أنا لا أسأل عن كيفية طهوها ولكني أسأل عن خطوط عريضة كي أستسيغها.

- لحم متبل بمجموعة من التوابل الغربية, تترك على اللحم حتى

التجميد لفترة معينة حتى تكون جاهزة للشواء

- عظيم لذلك تحتاج حوض الإستحمام في غرفة التجميد، لقد فهمت.

أثناء وداع «آدم» لفريق عمل المهندس «مجدي» بعد ما شكرهم ودفع لهم قيمة العقد سأله :

- هل لي بسؤال آخر ؟

- عادة أنا لا أحب الكلام كثيراً, وبالطبع لا أحب الأسئلة, لديك سؤال واحد فقط إسأله بسرعة إذا سمحت.

- هل ستصنع دورة مياة في هذه الحديقة ؟

بعدما لمح قاعدة حمام توضع في مكان قريب من بناء «الفيلا» موضوعاً في الحديقة وقد أشار إليه بسبابته اليمنى

- أعتقد أنك ذكي ولكن أعتبر هذه القاعدة التي تراها هناك بمثابة مفاجأة لا أستطيع البوح عنها الآن.

قالها بثبات ثم ودعهم وعاد مهرولاً إلى أعلى حتى دخل إلى غرفة التبريد بعد أن انتابته رعشة البرد المفاجأة، ظل يبتسم حتى ظهرت نواجزه، يحتضن نفسه كأنما يحتضن حبيبته، وأخذ ينظر إلى المكان وهو يدور حول نفسه,ثم اقترب من حوض الإستحمام يتحسسه في سعادة، ثم خطى خطوات سريعة نحو غرفته، فتح خزانة ملابسه يخرج بدلة مخصصة لسكان المناطق الجليدية لونها أصفر ووضعها على السرير ثم أخرج ألواحاً حديدية وبكر حديدي

وسلاسل كبيرة وطويلة وبعض من المواسير المقطعة بطول يقرب من العشرين سنتيمتر من تحت السرير بحماس وفرحة.

وسط غرفة التبريد أقف فخوراً بنفسي، ففي كل سقف خططت بقلم كبير مستطيلًا متوسطًا ليكون بمثابة غرفة مغلقة بستائر بلاستيكية, ثبت حامل حديدي مثبت به بكرة حديدية تسير عليها سلسلة حديدية، حتى ظلت كل الغرف متصلة من السقف من خلال حوامل حديدية وبكر حديدي يسير بداخله سلاسل حديدية نهايتها عند حوض الإستحمام وبجانبه ترتص مواسير حديدية مرتبة, أفتح الماء داخل حوض الإستحمام وأغلقه فأشعر بسعادة تغمرني, هكذا سأهدأ وهكذا سأستفيق، فقط ينقصني أن أجعل جوالين مادة (الثازلين) بالقرب من الثلاجة وكوب حديدي كبير.

***

«الحب.. دائماً قادر على أن يجعلك تلتفت إلى نفسك من الداخل.. ويجعلك أكثر لطفاً»

قررت أن أقول «ديدو» بدلاً من قول كلمة دكتور، يبدو اسماً مدللاً وفيه من اسم «هدير» وفيه من لقبها، لم أكن منتبهاً في تعاملي معها وأصبحت مهنتي تؤثر على حياتي الشخصية، إنها أنثى وليس جثة، ملعون تخصص طب الجراحة الذي جعلني أفكر في محبوبتي بهذه الطريقة, ارتسمت هنا ابتسامة عريضة على وجهه النضر وقد قرر النهوض من على فراشه متوجهاً إلى تراس منزله مقبلاً على الحياة، يوم مشرق إلى حد ما ولكنه مازال ضبابي، أحب دائماً هذه الأجواء, شمس ساطعة ولكن حرارتها معتدلة, غيوم كثيفة ولكنها تفسح مجالاً لأشعة الشمس أن تخترقها حتى لا تكون الحالة تميل إلى الليل, تشعر أنك في حالة معتدلة دائماً, لا حر ولا برد, لا صباح صريح ولا ليل صريح, أخذت في ارتداء ثيابي بسرعة ولابد أن أصلح حياتي الشخصية قبل أن تلتهمها المهنية، فبعد ساعة من الآن سأكون على موعد فطور مع دكتور «هدير» «ديدو» لا يزال الاسم ثقيلًا علي لساني ولكن مع كثرة التكرار سيكون الأمر سهلاً.

- أنتظرك منذ ساعتين

- هذا يعني أنك قد انتظرت قدوم العمال لفتح المطعم، لا أصدقك .

ضحكا سوياً وكانت بداية اللقاء رائعة .

- تعلمين يا «ديدو» أنني اكتشفت أن مهنتي قد أنستني حياتي

وأثـرت عليهـا؟

ضحـكات عاليـة بعـض الشـئ تضـغ يديهـا عـلى وجههـا خشـية أن تنفجـر مـن كـثرة الضحـك ويعلـو صوتهـا .

- «ديدو»!!! من أين أتيت بهذا الاسم ؟!!

أخـذ وجهـه النـضر يتحـول إلى درجـات اللـون الأحمـر تدريجيـاً وشـعر بالاحـراج مـن فعلتـه, فأخـذ يبتسـم اسـتحياء وقـال بصـوت منخفـض يحمـل في معانيـه الـتردد:

- أعلـم أننـي تلفظتهـا بطريقـة مضحكـة, أنـا فقـط لسـت معتـاداً عـلى نطقهـا، انتبهـت إن حيـاتي المهنيـة قـد أثـرت عـلى حيـاتي بالسـلب، أُلقـب حبيبتـي بلقـب مهنتهـا، لا يليـق، فجـاء اسـم «ديـدو» عـلى بـالي فأقررتـه

قاطعته بحنان عندما شعرت أنها قد سببت له كثيرًا من الإحراج :

- أحببتـه، قسـماً باللـه أحببتـه، ولكنـي لم أكـن أتوقعـه أو مهيـأة لسـماعه منـك , ولكنـه أعجبنـي وأحببتـه، وأشـكرك عـلى شـعورك هـذا حقـاً طيبـة منـك، أنـا أيضـاً قـد اكتشـفت أن كـثرة متابعـة مرضـاي النفسـيين أثـرت عـليّ بالسـلب، لقـد فـرت منـي سـنوات عديـدة لم أشـعر فيهـا بيـوم واحـد عشـته بـدون ضغـط أو دراسـة أو انشـغال في مشـاكل المترددين عـلى عيـادتي في تلـك السـنوات التـي مضـت منـذ تخرجـي مـن كليـة الطـب حتـى الآن، وأصبحـت أكـثر عصبيـة مـن شـدة تركيـزي وتفكـيري في أحوالهـم وكيفيـة مسـاعدتهم، أعتـذر عـن أي موقـف قـد تصرفـت فيـه بحماقـة.

- لا يوجد لدي أي تعليق سوى أننا نفكر الآن في كيفية اسعاد كل منا الآخز ولكنها كانت ذات نكهة جميلة وأننا علي الصراط الصحيح.

كان يوماً جميلاً كنت أنتظره منذ سنوات, فطور في مكان هادئ علي النيل الجميل, ثم تكرمت علينا الدقائق فكانت طويلة بعض الشئ حتى ساعدتنا أثناء تسكعنا على ضفافه للتطرق في حديثنا إلى مواضيع تكاد أن تكون تافهة للبعض ولكني استمتعت بها, علمت منه أحب الأكلات إلى معدته وما لا يطيق استنشاق رائحته, كذلك ألوانه المفضلة والأفلام والأغاني المحببة إلى قلبه, حقاً استمتعت وتمنيت أن تكون معظم أيامي مثل هذا اليوم الجميل.

***

«فرصة كنت أنتظرها منذ زمن بعيد.. آدم في عامه الواحد والعشرين»

- تعلم أن ذكرى يوم ميلادي غدا؟

- لذلك لا أريد أن أرى وجهك غداً، فعندي زيارة مهمة في الغد ولا أريد الازعاج.

علمت ما ينوي فعله, عندما يقول هذه الجملة تحديدًا أعرف أن فتاة من ضمن فتيات الليل تأتي في هذا اليوم لتقضي معه حفلة خاصة وأوقاتاً سعيدة، ما عدت أتتبع تلك الليالي فقد سئمت تتبعها وسئمت العلاقة التي لم تعني لي الكثير عندما أحببتها.

- إذن تريدني أن أبيت خارج المنزل؟

- في الصباح ستستلم ميراثك، فقد كبرت واعتدلت مشيتك وصرت قانونياً رجلاً، قانونياً فقط، أنت في الحقيقة مجرد أحمق.

- حسناً

نافذة مفتوحة, وغرفة خالية من الإضاءة, أحكم غلق بابها في هدوء, أخرج من فوق دولابه علبة سجائر وقداحة, وذهب إلي نافذته يشعل سيجارة ليدخنها في محاولة منه لشعور زمني قصير بحريته المفقودة, سيجارة هي الوحيدة التي تضيئ المشهد حول مساحة إضائتها الخافتة, وأخذ يفكر فيما قيل له, وفيما هو قادم.

نعم كبرت، وسوف تندمون جميعاً لأنني كبرت، سأحضر حقيبة صغيرة لأعدها لمساء الغد كي أبحث عن فندق لأبيت فيه كي أكون

في حالة مزاجية معتدلة حتى أضع خططي، فخططتي القادمة لابد أن تكون محكمة.

***

لم أعلم أن ميراثي كبير إلى هذا الحد، أعلم أن لدي الكثير ولكن ليست بهذه الكثرة.

هذا ما دار في عقل «آدم» بينه وبين نفسه, في حوار شخصي بحت وبدون أي تدخلات خارجية, ويندهش من الثروة المقبلة عليه فاردة ذراعيها له كي تحتويه بين أحضانها.

أجواء سريعة من الجميع, أناس كثر يحتلون المساحة الكبيرة من المكان, لباسهم يغلب عليه الطابع الكلاسيكي البحت, خطواتهم سريعة, ملامحهم جادة, نادراً ما ترى ابتساماتهم, يمشون في جميع الاتجاهات, تمثال كبير في مدخل المبنى مكبل العينين, يحمل في كل يد من يديه كفة ميزان يرمز إلى العدل .

- سأشتري نصيبك في «الڤيلا» بعد إحضار خبير لتقييمها وغالباً سيكون في الأسبوع القادم، وبعدها ترحل بعيداً عني.

- على الرحب والسعة، هذا ما كنت أفكر فيه أنا أيضاً .

- وهل هذه الرأس تفكر؟

تتكلم الآن ولك صوت نعرفه غير صوت نباحك؟ !

- ستعلم ما في رأسي قريباً .

قالها بداخله قبل أن يغادر النيابة.

«آدم»

«لم أكن يومًا أحب الأذى, ولكنكم أجبرتوني على فعل ما لا كنت أحب فعله, ولكن ذلك كان بالماضي, إنما الآن... أستمتع به»

- استمتعت بقتله

بعد أن جاء الممرض مصاحباً «آدم» حسب موعد مقابلته مع دكتور «هدير», لاحظت شحوب وجهه وارهاق من جهة أسفل العينين.

- الذي أراه الآن شخص لم يذق طعم النوم لعدة أيام, كيف حالك يا آدم ؟

- علي أسوء حال

- كم يوماً لم تذق عيناك طعم النوم؟

- منذ آخر مقابلة

- طلبت منك الراحة .

- وطلبتِ مني أن أتخلص من صديقي السئ وأحدد آلامي .

- وطلبت أيضاً منك الراحة، سأكتب لك على مهدئ قد يساعدك علي الراحة والنوم .

- استمتعت بقتله.

ثبات دكتور «هدير» في تلك اللحظة كان مقنعاً, حيث أرادت أن تستمع له وتصغي إليه بكل ما تملكه من تركيز .

- بمن ؟

- أريدك أن تتوقعي؟

- الأمر يهمك وحدك وأنا هنا فقط للمساعدة، ولكني أشعر بما في داخلك.

اغرورقت عيناه بالبكاء وأخذت رأسه تهتز نافياً.

- لم تشعري بي، ولن تشعري بي أبداً... هل واجهتي .....، الحالة الوحيدة التي فيها تقدرين الشعور بي هي أن تمري بكل ما مررت به, وأخذ يقص عليها معاناته في الطفولة وهو يبكي بحرارة واصفاً مشاعره ومدى تألمه في هذه المرحلة .

- أول آلامي كانت في الطفولة من خلال المدرسة وكل ما فيها من تلاميذ ومعلمين، فلم أشعر بالأمان ولا أعرف معناه، والثقة في النفس عرفت معناها مؤخراً .

أما في مراهقتي، الإنسانة الوحيدة التي شعرت أنها تقبلتني ومنحتها كل مشاعر الحب والأمان، مشاعر لم أشعر بها أبداً في حياتي تجاه أي شخص, تقبلتني فقط لأنني أمنحها المال لتحقيق السعادة، فلا مانع من أن تعطيني ما أشاء في شبابي طالما أمنحها كل ما تريده، هكذا قالتها لي مباشرة في يوم من الأيام، وأنا بالطبع قبلت, هل من الممكن أن أصادف شخص آخر يتقبلني مثلها؟ بالطبع لا, آلام الإستغلال والتحايل والقذارة والسهر، تحملتها,

تحملت الآلام التي دمرتني ببطء شديد، أخي الأكبر ومحطمي النفسي الأول والأساسي، في يوم عيد ميلادي أرسلني خارج «الڤيلا» لينعم هو بفتاة ليله، وعندما ذهبت لفندق لأقيم فيه تلك الليلة، لم تكن معي بطاقة تحقيق الشخصية، لقد اكتشفت أني قد نسيتها في بنطال آخر، فعدت من الباب الخلفي كعادتي عندما كنت أختلس النظر لأفعاله الدونية وأصعد محتضناً حذائي حتى لا يصدر صوتاً ويشعر بي أحد, وأتحرك ببطء ذاهباً إلى غرفتي كي أستعيد بطاقتي الشخصية, وإذ بالمفاجأة «حياة» بين أحضانه وملابسها متناثرة في أرضية المكان.

كلهم مدينون لي، كان حقاً عليّ أن أسترد كل مستحقاتي وكما يحلو لي.

عدت في اليوم التالي وجدته نائماً من أثر الثمالة فأخذت القرار أن يكون «عزت» هو أول من أسترد منه مستحقاتي، فهو مدين لي بالكثير، مدين لي بسخريته الدائمة لي، بلكماته وركلاته وبصقاته و.....، دمرني نفسياً بدلاً من أن يحتويني ويساندني، أتقوى به, يكون خير بديل عن والدي,لكنه سلب مني نعمة الأمان، ضربته بمطفاة سجائر عدة مرات وبعنف وقوة حتى أغشى عليه، أجلسته على كرسي وذهبت إلى الحديقة أجلب قيداً كان يقيدني به قديماً في جذع الشجرة فقيدته هو الآخر في الكرسي وكممته حتى أفاق.

- إيماءات «خنزير» غير مفهومة، من منَّا الأحمق ؟

مفاجأة!!؟؟؟

صرت أضحك بجنون وكنت وقتها أشعر بأنني في أسعد لحظات

حيـاتي وأنـا أراه مقيـداً مكمـماً لا حيلـة لـه ولا منجـي لـه سـواي.

- للأسـف، لم أعـد لـك العـدة كـما ينبغـي، ولكنـي سـأجد طريقـة ممتعـةكي أسـترد بهـا مسـتحقاتي وأطهـرك لعلـك تلقـي ربـك نظيفـاً وأشـك في ذلـك .

ضحـكاتي لا تتوقـف رغـماً عنـي، أهـرول في كل مـكان «بالثيـلا»، بداخلهـا وخارجهـا، حتـى جمعـت مـا أسـتطعت كي أشـفي غليـلي.

- سـأصنع لـك مـن غصـن شـجرة كرباجـاً كي تـذوق عـلى كـبر مـدى آلامـي التـي سـببتها لي في الصغـر، أليـس هـذا ديـن لابـد أن تـرده لي؟

ثـم انهلـت عليـه ضربـاً مبرحـاً كالمجنـون الـذي لا يميـز صحـة الأفعـال مـن خطأهـا، حتـي سـال الـدم عـلى أغلـب ملابسـه فأصبـح ك»حـمارٍ وحـشيٍ» قـد وقـع تحـت أيـدي وأنيـاب ملـوك الغابـة، فسـكبت عليـه زجاجتـين عطـر كانـت تؤلمـه بشـدة وكانـت تغمـر قلبـي سـعادة.

- كنـت أود أن أضعـك فـوق هـذه الشـواية، ولكنـك «خنزيـر» كبـير سـمين سـوف تكسرهـا، وقيمتهـا عنـدي أغـلى منـك، ربمـا لـو طاقـت نفـسي لأكل «خنزيـر» حقيقـي وأنـا أبغـض أكلـه, فسـوف أسـتخدم تلـك الشـواية وسـتكون مفيـدة بالنسـبة لي أكـثر مـن أن أشـويك عليهـا وتنكـسر هـي, إذن سـوف أجعلهـا تذهـب إليـك واحـدة تلـو الأخـرى .

وضعـت قطعـة فحـم مشـتعله عليـه فتـألم بشـدة وحـاول أن يهـز جسـده يمينـاً ويسـاراً وقفـز بالكـرسي قفـزات صغـيرة حتـي تذهـب عنـه، فلاحقتـه بأخـرى وأنـا في شـدة اسـتمتاعي بشـدة آلامـه، قلبـي يرقـص فرحـاً، حتـى ظهـر لحـم جسـده وزادت سـيولة الـدم، فوضعـت

عليه الماء المثلج.

لم أكن مستعداً بطريقة كافية.

- ديونك لي مستمرة، لا تكفيني أن تزهق روحك في شفاء غليلي منك، ولكن الآن استعد جيداً للمتعة الأخيرة.

أخرجت سلكاً طويلًا وقمت باستخراج المادة البلاستيكية التي تحمي من التعرض للتيار الكهربائي قرابة خمسة عشر متراً من كل طرف، هممت بلف كل طرف من أطراف السلك على أنحاء جسده، في قدمه ويده وجزءاً من بطنه ورأسه اليمنى في طرف، والجانب الآخر من الجسد موصل جيداً بالطرف الآخر، وذهبت نحو المقبس أضعه في الكهرباء وأسحبه سريعاً، فأراه يهتز ويتألم، فيزيدني فرحاً واستمتاعاً، كررتها قرابة أربع مرات وفي الخامسة أحببت أن أرى روحه تصعد لبارئها.

- استمتعت؟

- كثيراً

- شعرت بأنني قد استرددت جزءاً من قيمتي، شعرت بكلمة الإنتصار لأول مرة في حياتي، شعور طيب يدعو إلى الفخر.

سأكمل لكِ ما حدث.

- أراك مازلت فخوراً

- قلت لكِ لو عاد بي الزمن إلى الوراء سوف أسترد مستحقاتي بنفس الطريقة، ربما كنت سأجهز لها بطرق أفضل.

- أكمل.

- أريد منك خدمة؟

- أنا هنا في الخدمة

- هل عجلتي بكتابة تقرير يذهب بي إلى حبل المشنقة؟

- هل جننت؟

- سأكتب كل ما أملك إلى شخص تثقين فيه, وبعد وفاتي تأخذين منه كل أملاكي.

- إذن بالفعل قد جننت .

- أبداً, أنا صادق فيما أقول, حقاً لو عاد بي الزمن إلى الماضي لكنت كررت كل ما فعلته وبأكثر براعة مما فعلت, ولكني أريد الرحمة, أريد أن أتخلص من آلامي, أنا لم أكن شجاعاً في إيذاء نفسي, وقانوناً أنا أستحق الإعدام, وهذا شعور جيد بالنسبة لي, سأرتاح من آلامي ومن أفعالي السابقة إلى الأبد.

- لم يكن قانونياً بتقرير مني, وحكم اللجنة .

- لكم ما تشاءون, فقط ساعدوني .

- هل أكملت أولاً ما أردت أن تخبرني به؟

- حسنًا, نهضت سريعاً وحفرت حفرة في الحديقة وألقيته فيها، وضعت عند حفرته قاعدة حمام قديمة وجدتها في طريقي وأنا أبحث عن قيد كي أعلم مكان قبره.

قلت له لا تقلق لنا لقاء قريب.

- هـل نكتفـي اليـوم، فقـد سـجلت ملاحظـات مهمـة سـأخبرك بهـا لاحقـاً، الممـرض المسـئول بـك سـيأخذ تعليـمات صارمـة في المتابعـة والمواظبـة عـلى تنـاول الـدواء الـذي سـأكتبه لـك، نـم واسـترح ولنـا لقاء بعـد ثلاثـة أيـام نكمـل مـا وصلـت إليـه ومـا الـذي جعلـك لتفعـل مـا فعلتـه في المـاضي، لا تنـس بأننـي متضامنـة معـك ولـن أتـركك تتـأذى فيـما بعـد.

- إلى اللقاء.

- إلى اللقاء .

قالهـا وهـو منهـك غـير قـادر عـلى القيـام بصحبـة الممـرض المسـئول عنـه الـذي قـال لدكتـور «هديـر» الضابـط في انتظـارك في مكتبـه ويبلغـك بـضرورة مقابلتـه, ردت عليـه وهـي تكظـم غيظهـا :

- أبلغـه أني في عجلـة ومرتبطـة بموعـد مـع مريـض آخـر وسـوف أزوره في القريـب.

***

«خبرة وسند»

ما فعلتيه خطأ جسيم يا «هدير».

- لم أتمالك أعصابي يا «عاصم» و...

قاطعها بحزم ونظر إلى وجهها المرتبك حتى أمسك بكفي يديها المرتعشتين بعد أن أصبحت لهجته مختلفة بعض الشئ يتخلل في حزمه الخوف والحنان :

- أنتِ تتعاملين مع جهاز الشرطة يا حبيبتي، وقد ينتاب الضابط بعض الشك من عدم مقابلته ومده بالمعلومات، هو في كل الأحوال بمشفى الأمانة العامة للأمراض النفسية والعصبية يقضي فيها حكمه ليس أكثر، إن كان مريضاً سيقضي طوال عمره فيها بسبب الأحكام المقررة عليه، وإن كان غير ذلك فليس له دربا سوى حبل غليظ يلتف حول عنقه وقضي الأمر، هل تتعاطفين معه؟

- بالطبع

- خطأ

نظرت له نظرة استغراب بعد أن تخللها شعور الشهامة منه وموقفه معها كوتد متين تستند عليه وقت ضعفها فتبدل هذا الشعور بشعور عدم الإحساس بداخلها فأخبرته بوهن :

- وما هو الصواب؟

- أعلم شعورك جيداً، أنتِ طبيبة يحتم عليكِ تخصصك بتحليل الظروف النفسية التي أدت بمريضك لفعل أفعال شنيعة غير

طبيعيـة، فتلتمـسي لـه كل الأعـذار فتتعاطفـين معـه، هـذا لـو كان مريضـك يـأتي إليـكِ في عيادتـك الخاصـة، لكـن عندمـا يكـون الأمـر متعلقـاً بقضايـا وتعامـل جـدي بـين طبيبـة وضابـط وملـف قضيـة، لابـد أن تسـيطري عـلى مشـاعرك وتفعـلي مـا يوجـب عليـكِ أن تفعيلـه، مـاذا لـو كان توصـل لبعـض المعلومـات التـي كانـت أو ربمـا سـتفيدك في تشـخيصك لحالـة «آدم»؟ لابـد أن تضعـي كل الأحـداث تحـت إطـار المنظقيـة, كيـف تتعاطفـين مـع مريـض أنـتِ كمتخصصـة لم تتأكـدي مـن حالتـه المرضيـة؟ هـل تفهمينـي؟ فقـط أخـاف أن يلحـق الشـك فيـكِ مـن قبـل الضابـط المتابـع لقضيتـه ليـس أكـثر .

هنـا «هديـر» اسـتدركت الأمـر وشـعرت براحـة تجاهـه وتجـاة آراءه الثاقبـة الناضجـة، ولكـن بقلـة حيلـة سـألته :

- وماذا عليّ أن أفعل الآن ؟

- هل لديكِ هاتفه؟

- نعم .

- فقـط هاتفيـه الآن، واعتـذري لـه عـن عـدم مقابلتـه لانشـغالك بحالـة مرضيـة خطـيرة أخـرى، وأمـلي عليـه مـا توصلتـي لـه مـع مريضـك خـلال زيارتـك لـه .

- أصبت ، سأفعل الآن .

شـعرت أنهـا لا تـزال تحتـاج إلى الوقـت الـكافي كي تزيـل الصـدء الكامـن عـلي أقفـال قلبها,لكنـه عـرف جيـداً أن يحتوينـي بهـدوء وبـدأت أن أسـتبشر خـيراً في المسـتقبل .

- أين هاتفك ؟ أراكي ذهبتي بتفكيرك إلي بعيد .

- «عاصم»، أراني أمثل عبئاً ثقيلاً عليك، أريد فقط أن تقدر ما أنا فيه من ضغوط .

- لم أشتكِ بعد .

قالها بحس فكاهي كي يخرجها من حالتها البالية, فابتسمت .

- هاتفي الضابط حالاً فهذا أفضل .

- سأهاتفه حالاً، أشكرك .

- لا عليكِ .

***

«أشخاص من الصعب ننساهم, لم يكونوا أحبابنا, بل هم صناع الألم»

لم أشفِ غليلي بعد، «شريف عادل - مراد العدل» هم أكثر الطلاب الذين سخروا مني في أيام الدراسة وسببوا آلامي، الأستاذة المبجلة الضليعة في مادة اللغة العربية «تهاني جمال» التي سقتني كرهي لنفسي بملعقة صغيرة أتجرع منها يومياً خلال... لا أتذكر عدد السنوات ولن أحسبها وأرهق عقلي في العد على أصابعي، لم أعد أعرف لهم طريقاً سوى «مراد العدل»، فقد كان من ضمن أصدقاء «حياة» المقربين وكنت أراه في بعض الحفلات، حتي عندما كبرنا لن ينتهي من سخريته الدائمة، كان يلقبني ببنك الغباء، كانت هيئته تشعرني دائماً بتمني العمى، كائن متوسط الطول شعره يميل للون الذهبي الفاتح ذو بشرة بيضاء وعينين واسعتين سوداتين وأنفاً مفلطحة، دهون جسدة تتراكم فوق بعضها وكانت ألوان ملابسه دائماً غير متناسقة، تشعرك هيئته برجل إنجليزي سكير مترهل يسود على شخصيته البرود واللزوجة، ولكن لا بأس، تحملت الكثير وبدأت السير على درب أجد فيه متعتي ويشبع ذاتي وعليّ استمرارية السير فيه دون توقف.

- مرحباً «مراد».

- من أنت ؟

- أنا ااا .. أنا «آدم» قالها في تلعثم .

- أنا لا أعرف شخصاً في حياتي اسمه... «آدم» بنك الغباء؟ قالها متسائلاً ضاحكاً بسخرية وأكمل :

- من أين أتيت برقم هاتفي؟ وماذا تريد؟

- من «حياة»

- أتعلم شيئاً عنها، قالها منتبهاً لعله يجد أخباراً جديدة عنها.

- سأخبرك كل ما أعلمه عنها ولكن هل تعلم أين ذهب «شريف»؟ أريد أن أصل إليه.

- «شريف عادل»؟؟ نعم أتواصل به من حين إلي آخر، أصبح كثير الانشغال الآن بعدما عمل مشرفاً في مدرستنا القديمة, هو تحت التدريب الآن، يريد أن يثبت ذاته

- عندي أخبار جديدة تخص «حياة»، ولكن الأمر عن جد لا يتحمل سرده في مكالمة هاتفية، أصبحت وحيداً الآن وسأدعوك للعشاء بعد غد لنتناول أخبار «حياة»

- هي بخير؟

- أعتقد الأمر معقد بعض الشئ .

- سأتي إليك بعد الغد في تمام الساعة السابعة ليلاً

- وهذا الموعد أيضاً يناسبني، سأنتظرك.

***

«استراحة وضغط جديد»

- الحمد لله لقد تقبل الأمر على غير عادة ويريد زيارتي غداً، وكما سمعت أنني أبلغته أن الغد لدي كثير من المرضى وسأحوّل جميع المرضى المترددين على عيادتي لطبيبة زميلة حتى أتفرغ لهذه الحالة وشكرني وتقبل الأمر كما سمعت.

- وستغلقين عيادتك؟

- مؤقتاً، لا أريد ضغطاً مضافاً أكثر من ذلك، نعم بنيت اسماً رناناً في مجالي خلال الخمسة سنوات السابقة، ولكن طاقتي تستنفذ وأريد أنا استشارة لطبيب نفسي يساعدني على تخفيف ضغوطي.

نظر لها نظرة ارتياب ولكن في حس فكاهي سبقته في الرد:

- لا تقلق هذا أمر طبيعي بيننا كأطباء نفسيين، نحتاج مساعدة بعضنا البعض كل فترة من أثر التعرض إلى أمراض نفسية كثيرة معقدة قد تؤثر على صحتنا النفسية، لا تقلق لم أجن بعد

فضحكا وعرض عليها أن يصطحبها إلى منزلها بسيارتها كي ترتاح من أعباء القيادة وتأخذ قسطا بسيطاً من الراحة، ثم يعود حين ترك سيارته ليذهب إلى عمله، فيزال هناك مزيد من الوقت قبل إجراء عملية جراحية لمريض في إحدى المستشفيات الخاصة التي يعمل بها.

أصبحت غرفتها مرتبة نسبياً ولكن خزانة ملابسها لا تزال ممتلئة بدرجات اللون الأسود، ذهبت إلى النافذة لتفتحها ووقفت لبرهة حتى يتخلل الهواء البارد جسدها، نظرت للمسجل وذهبت تتفحص

موسيقاها حتى وضعت قرصاً مدمجاً لموسيقى الچاز المفضلة لديها وذهبت إلى المطبخ وجسدها يتفاعل مع الموسيقى بتمايل بسيط يوضح إرهاق هذا الجسد الهزيل لتصنع كوباً من شراب القهوة العربية ذات التحويجة المنهكة بقليل من حبوب الهيل لتعود مرة ثانية لتقف أمام أقراصها المدمجة لتستبدل موسيقى الچاز برائعة من روائع سيدة الغناء العربي أم كلثوم لحفل أغنية فكروني

نظرت إلى هاتفها بنظرة مباشرة إلى المكان الذي يظهر فيه توقيت الساعة، فقد يتبقى نصف ساعة على موعد العملية التي سيقوم بإجرائها «عاصم» فاتكأت على فراشها، وقامت بخفض صوت المسجل نسبياً من خلال خاصية التحكم من على بعد وأخذت في مهاتفة «عاصم»

- مرحباً «ديدو»

- مرحباً يا أمهر طبيب جراحي في جمهورية مصر العربية وقريباً في الوطن العربي .

- لديّ طلب !.

- تفضل .

- لا تسمعي إلا «لأم كلثوم» بعد هذه اللحظة، جعلت حبيبتي تمنُّ عليّ بكلمات مشجعة تحملها المغازلة، قوليها مغازلة صريحة لاتكذبي

- هذه ليست مغازلة، والمغازلة لها طريقة أخرى أعتقد أنك لا تعرف طريقاً لها .

أكملت بعد ضحكاتها التي خرجت من بين ضلوعها.

- كنت فقط أهاتفك لأقول شئ آخر ولكن إن كانت هذه مغازلة فلا بأس، فأنت طبيب ماهر حقاً لست فقط في الجراحة ولكن أيضاً في المشاعر .

أريد فقط أن أخبرك بأنني ... أحبك .

ولا أريد رداً إلا بعد أن تنتهي من عمليتك وتبلغني أنك قد وفقت فيها .

- أحبك.

***

- فقط أريد أن أعلم شيئاً، أهو مريض حقاً أم يدعي المرض؟ أرى بعد ما سردتيه عليّ الآن بأنه مجرم يخطط وينفذ بحرفية شديدة وباتقان، كيف لمريض أن يصل لهذه الدرجة من الوحشية وأصرّ على احتمالية مرضه؟

قالها في عصبية مستفهماً من دكتور «هدير» وهو يضع ما تبقى من سيجارته في المطفاة ينتظر منها إجابة ,

- لذلك أنا هنا

- وأنا أسألك

- الأمراض النفسية كتلك...

قاطعها وهو يشيح بيده لأعلى في حالة ملل

- تأخذ وقتاً طويلًا لمعرفة المرض وأسبابه، لقد درست مادة علم النفس في كلية الشرطة للعلم .

- إذن ماذا يكون تشخيصه؟

- مدَّعي المرض لا شك .

- تتحمل اعدامه بعد تشخيصك؟

- دعنا نأخذ الأمر بأكثر روية, بعد أن جعلته يتوتر ويعود لهدوئه مرة أخرى .

- سأجعلك ترتاح قليلاً ولكن أستأذنك بأن لا تمثل الضغط عليّ لتأخذ معلومات قد تغير مجرى سير القضية وتعتقد إني أخفيها عليك

قالتها بثقة وهدوء حتى تكون الجلسة غير مضطربة .

- أشك حتى الآن بنسبة كبيرة أن «آدم» يعاني من مرض السادية، وسأتأكد في الغد من تشخيصي كما أتمنى، سأخرج من عنده إلى مكتبك دون الحاجة لتذكيري من خلال الممرض المسئول عن مرافقته.

***

مبنى حوله سور وبابان حديدان كل منهما كائن في شارع مختلف مدهون بلون أخضر، من الجهة اليمنى تلمح علم جمهورية مصر العربية منتصباً لأعلى ترفرف رايته يميناً ويساراً بسرعة، ومن خلال الباب الآخر كان خاصاً بالمعلمين والمبنى الإداري, فمكثت

أمامه حتي انتظرت قدوم أستاذة «تهاني» فذهبت إليها كي أذكرها بنفسي فسبقتني هي بالحديث.

- ألازلت علي قيد الحياة.

مع ابتسامات تبدو باردة بالنسبة لي.

- نعم بفضلكم.

- افتقدت المدرسة؟

- لم أفتقدها بعد، بل أوصتني إحدى القريبات أن أرشح لها مدرساً كي يدرِّس لابنها في المنزل دروساً خصوصية في اللغة العربية من مدرستي لسمعتها الطيبة، فتذكرت حضرتك وجئت لأسأل إن كانت هناك مواعيد متاحة أم لا.

- أتعلم، لقد أحرجتني، سأصحبك إلى غرفة المعلمين تتنظرني هناك حتى أنتهي من حضور الطابور الصباحي، أتعلم؟؟ لك صديق هنا تحت التدريب.

- من ؟

- «شريف عادل».

- حقاً، يأتي كل يوم؟

- نعم، سأخبره حتى يأتي معي بعد انتهاء الطابور الصباحي.

- حسناً، كم أنا متشتاق لرؤيته.

«صدام»

كما يصفون أصحاب الأجسام الرياضة أنه ذو طول وعرض مناسب، بشرته الخمرية وشاربه, عيناه الحادتان تجعلك تهابه من النظرة الأولى، «حمدي الشاذلي» ضابط مسئول عن متابعة قضية «آدم» من خلال وضعه في الأمانة العامة للصحة النفسية أو من خلال استجوابات لأي فرد له علاقة بقضاياه. وذلك لصلابته وقوة شخصيته وحزمه واصراره الدائم في الوصول إلي نهاية الخيط في كل القضايا الموكلة له.

جعلني أنتظر قرابة الثلاثين دقيقة حتى سمح للعسكري الخاص بمكتبه أن يأذن لي بالدخول فتصنع عصبية مفتعلة من خلال محادثة تليفونية ليخبرني بحالته المزاجية، نظر لي نظرة الشبه معتذر عن مدى تعكير مزاجه معتذراً .

- آسف يا دكتور، إذا كنتِ تعملين مع فريق عملك بجدية ويفاجأك فرد منهم بالتكاسل في مد المعلومات.

علمت أنه يقصدني ويلمح لي بطريقة غير مباشرة ففضلت أن أبادر في الحديث مباشرة دون الخوض في مبررات لم تكن مقنعة بالنسبة له.

- على أي حال سيدي الفاضل بخصوص حالة «آدم» لم أتأكد بنسبة مائة في المئة من المرض الذي يعاني منه، لكن تحديداً وضعت يدي على الأسباب ومن خلال جلساتي معه المقبلة سيتم التأكد منه.

- وما هو مرضه الذي تشكين فيه؟

- أفضل التحدث عن مرضه حين التأكد .

- سيدتي الطبيبة المبجلَّة، هل إخباري بما تتوصلين له يعد سراً؟ نحن فريق عمل واحد.

- نعم سيدي المبجَّل أعلم ذلك ولكني أخشى من حدوث تغير في المعاملة بعد اخباركم بمرضه فيعود عليه بالسلب, فقط أخبرتكم عن السادية ولكن الكثير من الأمراض النفسية تتشابه أعراضها مع بعض, فقط اختلافات بسيطة هي من توضح لنا الأمر.

- ولنفترض هذا حدث، هل سيجدّ جديد، هو بالنسبة لي ميت ميت، مكوثه هنا وإن كانت خمساً وعشرين سنة يعتبر ميت، وبالطبع ميت بإعدامه.

- هذا بالنسبة لك، أما بالنسبة لي فهو مريض عليّ أن أحافظ عليه وأقدم له العلاج المناسب حتى وإن كان ميتاً، طالما تدبُّ دقات قلبه فهو إنسان يجب أن يتلقى الرعاية الطبية الكاملة حتى لو ظل من أربع وعشرين ساعة إلى مئات السنين يقيم في الأمانة العامة للصحة النفسية والتي أعدت له ولأمثاله خصيصاً، وهذا بعلم وزارة الداخلية التي تعمل فيها حضرتك، غداً لدينا جلسة ويجب عليّ التأكد من مرضه كما أتأكد أنني أراك الآن.

- على الرحب والسعة يا دكتور, ألم أقلها بطريقة صحيحة؟

الألقاب لا تؤنث.

- أعلم ذلك, لأن الألقاب دائماً ما تجلب إلينا المتاعب.

- إذن أرنا كفريق عمل كل منا يسلك طريقاً مختلفاً.

- أراك تسلك طرق متعجلة فقط لا غير.

- لا عليكِ.. لم تعرفي طرقي بعد ولكني أحاول ألَّا أتعجل فنصيحتك سمعتها كثيراً ولكني لازلت أعمل بدم حامٍ لا أهدأ حتى أنهي مهماتي, تريني أحتاج لزيارتك في العيادة.

- هل عليّ الإستئذن الآن؟ لدي تحضيرات لجلسة الغد.

- حسناً.

***

«أنتم من تضطروني وتستفزوني, فلكم ما تستحقون»

هاتف مزعج, لابد أن أبدل نغمته إلى نغمة هادئة بعض الشئ, أعصابي لا تتحمل ضجيجه, أو عليّ أن أجعله صامت ولكني أخشى ألّاَ أنتبه إليه, على كل الأحوال من هذا الرقم المزعج ؟

- دكتورة «هدير»؟

- نعم, من المتحدث؟

- أنا «عادل شوقي», الضابط الجديد المسئول عن قضية «آدم السعدني».

- وإلى أين ذهب الضابط «حمدي الشاذلي»؟

- توفى بالأمس وأريد مقابلتك على الفور.

- نعم, كنت أمكث معه في المكتب بالأمس, لا حول ولا قوة إلا بالله, أنا على موعد بالمشفى اليوم, سأكون متواجدة في مكتبك في تمام الساعة الرابعة.

- عذراً ولكن الضرورة تحتم وجودك في خلال ساعة من الآن؟

- هل الأمر متعلق بـ «آدم» أم بالضابط «حمدي».

- الإثنان.

- هل من خطوط عريضة؟

- لا بأس, في الحقيقة أن وفاة الضابط «حمدي» لم تكن عادية, فقد

قتل على يد أحد المرضى بطريقة عجيبة, هذا المريض هو «آدم السعدني».

***

ضحايا «آدم» يزدادون, حتى بعد القبض عليه وحجزه في المشفى, كيف قتله؟ وبأي أداة, ماذا فعل الضابط «حمدي» لاستفزازه؟

وكيف «لآدم» الهزيل قتل الضابط «حمدي» صاحب الهيبة وفتول عضلاته؟ أسئلة صالت وجالت في عقل دكتور «هدير» وهي ذاهبة للمشفى حتى وصلت وسمح لها المسئولون دلوفها إلى مكتب الضابط «عادل شوقي».

كما توقعته تماماً, شاب سنه يقارب سني, تظهر على هيئته الرزانة والعيشة الهنية, ملابسه بسيطة ولكن تظهر عليها الأناقة والحداثة, طويل بعض الشئ وبشرته ناعمة بيضاء, شعر قصير منمق, تظهر عليه ملامح الاهتمام بقضية مهمة, ملفها مفتوح أمامه, وورقها متناثر على مكتبه, ويبدو على الملف أنه يخص «آدم السعدني», بعد الترحيب الذي يشوبه الجدية والحزن, بدأت حواري معه بتقديم العزاء لزميله

- البقاء لله.

- البقاء لله وحده, كيف حالك يا دكتور؟

- الحمد لله, ماذا حدث؟

- أعلم أهمية الطب النفسي في تلك الظروف, كل ما أود إخبارك

به هو أن «آدم» قتل الضابط «حمدي» رحمة الله عليه بالأمس, وأريد منك مقابلة «آدم» والحديث معه عن كيفية قتله والدوافع التي دفعته لذلك, ثم نتشاور في الأمر بعد المقابلة ونطابق ونبحث المعلومات التي لدينا بدقة, أريد مساعدتك وأريد أن أتعاون معك .

- بداية مبشرة حضرت الضابط, سأقابله على الفور, أنا هنا لعلاجه إن كان مريضاً أو تقرر ادعائه المرض, فأنا هنا لمساعدة الجميع .

- حسناً, بالتوفيق .

- أشكرك .

***

خرجت من الغرفة التي كان بها الضابط «عادل» في المشفى, أسير بخطى بطيئة في الممر المؤدي إلى غرفة «آدم» كما طلب مني الضابط «عادل», لصعوبة تجوله في الوقت الحالي داخل أرجاء المشفى لعدم معرفة توقع ردود أفعاله بعد ما حدث بالأمس, دقات قلبي أسمعها وأشعر بها, يداي ترتجفا بعض الشئ, ولكني لابد أن أتماسك حتى أعلم تطور حالته.

- كيف حالك يا «آدم»؟

- على خير حال, أعلم مجيئك, كان يجب عليّ أن أتخلص منه, إنسان مزعج, مستفز, متعجرف, سليط اللسان, لابد أن يشكرني العالم لأنني تخلصت من واحد من أمثالهم.

- هل أخبرتني بما حدث؟

- ألم يخبرك من ناب عنه؟

- في الحقيقة لم يخبرني, أراد أن أعلم بنفسي.

- مكير هو الآخر, لم أره بعد ولكني أتمنى أن يعتبر مما حدث.

- ماذا حدث يا «آدم»؟

- أدلف إلى غرفتي هذه وأغلق الباب, أيقظني من نومي بطريقة شنيعة, كنت نائماً ثم استقيظت وأنا ممسكاً من أعلى قميصي هذا بقبضته القوية وهو يدفعني بقوة على الأرض, فهرعت إلى الباب لكني وجدته مغلقاً, فحدثني بعنجهية:

- أتفرّ مني يا فأر, لا مفر مني اليوم إلا أن تعترف على جرائمك, ثم سبنّي بأمي وأبي

لم أنطق كلمة حتى اقترب مني وهو يخلع حزامه يهدّدني به, فقررت خداعه.

- كل ما تريد معرفته سأقصه عليك, ولكن لا تستعمل معي العنف فقد يغشى عليّ أو لا أتحمله

- إذن سأجلس هنا لأستمع.

عندما جلس أخبرته بقصة وهمية وجعلت نفسي أقوم وأتحرك لأشرح له ماذا جرى بـ «عزت» أخي, ثم أخرجت سكيناً صغيراً قد سرقته من مطبخ المشفى عندما وقفت خلفه, فطعنته في رقبته

اليمنى طعنتين, فصرخ وتألم ووضع يداه على الجرح , فسبقته بطعنتين أخريتين في رقبته من الجهة اليسرى, فخرت قواه, فدفعته على الأرض وذبحته كي أتخلص منه, لو كنت في «فيلتي» كنت سأفعل به كما فعلت بالأشرار وأنا أتخلص منهم.

- كيف حصلت على السكين؟

- كنت أقدم طبقي بعد أن أنتهيت من وجبة الإفطار, فلمحت الطاهي يقطع بعض الخضروات بسكين رفيع وصغير على لوح خشبي, فذهبت إليه أطلب منه كوباً من الماء, فلبى طلبي ولكني خدعت الجميع عندما سحبت السكين من فوق الطاولة بسرعة ودفعت اللوح الخشبي المخصص لتقطيع الخضروات إلى الأرض وصرخت بعلو صوتي أن فأراً قد مر من فوق الطاولة ودفع اللوح الخشبي بالخضروات من على الطاولة, ثم شربت الماء وذهبت.

- ما الذي دفعك للاحتفاظ بها؟

- احتفظت بها لأدافع عن نفسي في أي وقت, وقد فعلت.

- هل لي أن أستأذن ساعة ثم نعاود الحديث مرة أخرى؟

أومأ برأسه أي نعم في لامبالاة, ثم ذهبت للغرفة التي كان ينتظرني الضابط «عادل شوقي» فيها, لتخبره بما قصّه عليها بما فعل بالأمس

- نعم, أقواله متطابقة لما قاله في التحقيق, أشعر أنه بالفعل مريض ويحتاج لعزل تام.

- لا نستطيع الجزم بذلك حضرة الضابط, فهناك بارعون في دراسة الأمراض النفسية لاستخدامها في ارتكاب جرائمهم.

- أتشعرين أنه يدَّعي المرض؟

- الشعور وحده لا يكفي, هناك أعراض وأفعال توضح ذلك, أنا أصبحت محل ثقة بالنسبة له, أو صندوقاً واسعاً يفرغ فيه ذكراته وحكاياته المؤلمة, هذه خطوة سعيت إليها كي أتعرف على تاريخه المرضي إن كان مريضاً, وأتصيد حكاياته وأقارنها بالمرض لعلي أكتشف ثغرة توقع حبل المشنقة حول رقبته إن كان مدعياً مرضه.

- هل وجدتِ ثغرات؟

- دعني أعود إليه فأنا أريد أن أستكمل معه حديثاً لم ننهيه من قبل.

- تفضلي.

***

«لوح ثلج»

كادت أن تنفرج, كان يجب أن أشعر بالسعادة, لماذا تضيق الدنيا وتطبق على صدري وينكتم الهواء داخل رئتي, أعتقد أنه ضابط محنك, ذو فكر متزن, مرتب, يعلم ما يريد, وأعتقد أن «آدم» لابد أن يدلو بدلوه حتى ننتهي من هذا الضغط.

- «آدم», كم ساعة تستغرقها في النوم؟

- لا أعلم لماذا لا تعمل مهدئاتك بشكل جيد, فقط نمت ليلة أمس جيداً.

- تنام فقط بعد القتل؟

- أراكِ غاضبة لما فعلته بالأمس...

- تريديني سعيدة بفعلتك؟

- أراني أخلص البشرية من الأشرار.

- وهل ما فعلته خير؟

- بالطبع, كم إنسانٍ رحمته من هذا المتعجرف؟!

- آدم, هل قصصت عليَّ حادثة حياة؟

- قبل قصة حياة حدث شئ

- أخبرني بكل شئ .

زفر زفرة قوية بعد استنشاق كمية هواء كبيرة بعض الشئ ببطء

شديد, ثم فرك يديه ورجع للخلف واضعاً إحدى قدميه على الأخرى كأنه يستعد لسرد تفاصيل مهمة

- بعد مشاهدتي لـ»حياة» بين أحضان «عزت», وقد خططت ...., خططت للانتقام, ليس انتقاماً هدفه هو مجرد التخلص من أشخاص تعرضت للأذى على أيديهم وحسب, لا, انتقام يليق بهم, وبآلامهم, انتقام يشفي غليلي, يرويني من الداخل ويشبع نفسي ويداوي جراحاتي, فجالت فكرة في بالي حتى تمكنت مني وصارت تراودني في كل الأوقات حتى صارت في محل التجهيز, بحثت في شبكة الإنترنت ودرست ما جال في بالي لأنفذه حتى وضعت يدي على كل المعدات التي أحتاجها للتنفيذ, قمت بشراء معدات مختلفة كسلاسل وحوامل حديدة و.... أتذكر عندما تخلصت من «عزت» ذهبت مسرعاً إلي الحارس وأخبرته بأن اليوم هو أخر يوم عمل له في هذه «الفيلا» لأنه الغريب الوحيد الذي يجب عليه المغادرة الأبدية, دفعت له أجرته وغادر, وكنت حراً منفرداً طليقاً.

خدعت شركة تجهيزات فنادق ومطاعم لإعداد غرفة ثلاجة مرفق بها غرفة تجميد لتحويل «الفيلا» إلى فندق, وبالفعل أعدوه جيداً, بعدها قمت بتجهيز معداتي بكل همة ونشاط, حتى انتهى كل شئ كما خططت تماماً, ذهبت بعد ذلك أخرج جثة عزت بعدما قمت بإزالة مقعد الحمام من فوق قبره ونبشت في الأرض حتى وصلت إليه, بعد دقائق معدودة اتخذتها للراحة, حملته للأعلى وطرحته أرضاً بجوار حوض الاستحمام ثم ذهبت لبرميل (الفازلين) للأخذ كوباً منه, ثم وزعت (الفازلين) على سطح حوض الاستحمام كي لا يلتصق الماء المجمد بحوض الاستحمام بقوة, ثم طرحت جثة عزت بداخله بعدما حملته بصعوبة, ترنحت به

كثيراً, بالفعل أرهقني حمله جداً, جلست بعدها ألتقط أنفاسي لدقائق معدودة, ثم قمت بفتح صنبور المياه برفق, وجلست سعيداً أشاهد جثته تعوم وتطفو على سطح الماء, فأقوم بضغطها لأسفل, فأستمتع بأصوات بعض فقاقيع المياه وهي تخرج من أنفه وأذنيه, فأضحك, مكثت أكررها مراراً حى كاد الماء يخرج من حوض الاستحمام فأغلقت الصنبور ووضعت قطعة أسطوانية من ماسورة بشكل أفقي أعلى حوض الاستحمام ومررت بداخله سلسلة معدنية بشكل دائري, ثم وضعت فوق حوض الاستحمام قطعة خشبية مدهونة بمادة (الفازلين) فوق الحوض كي تتحكم وتضمن دخول الجثة داخل المياه ورفعت فوقها جزءًا من السلسلة المارة داخل الماسورة, كنت في قمة سعادتي, وانتشيت أكثر عندما ذهبت إليه مرة ثانية بعد مرور أربع ساعات ورأيته بأم عيني متجمداً, ذهبت لزر التشغيل لأختبر عمله, فاهتز لوح الثلج الذي يمكث بداخله جثة «عزت» داخل حوض الاستحمام, ولم تتأثر قطعة الماسورة التي وضعتها فوق رأسه التي تمر سلسة بداخلها لتقوم باستخراج لوح الثلج من حوض الاستحمام بسلامة وأمان, قمت باختباره بسرعة مرة ثانية, بنفس السرعة, فرأيت انفصال اللوح الثلجي عن حوض الاستحمام فضغط ضغطة طويلة فارتفع إلى أعلى حتى رأيته معلقاً بشكل عمودي أمامي لا حيلة له ولا قوة, «عزت» مجمد أمامي داخل لوح ثلج, وستحافظ غرفة التبريد على هذا اللوح ما دام يعمل جيداً, فزفرت مني ضحكة عالية, ثم حركته بالمقبض مستخدماً زر التشغيل حتى تحرك إلى المكان المخصص له.

قد قمت بتقسيم جزء من الغرفة بجانب الحائط وموازي له إلى

غرف بفواصل معدنية, يفصل بين تلك الغرف ستائر بلاستيكية, وكانت غرفة «عزت» هي الغرفة الأولى على يسار باب غرفة التبريد, جلست ساعة أنظر إليه شامتاً فيه, ثم خرجت ذاهباً إلى حمام غرفتي كي أتطهَّر من نجاساته, ارتديت ملابسي المنزلية النظيفة وهيأت نفسي إلى النوم على فراشي, فخلدت غرقاً في نوم هادئ عميق.

- ماذا فعلت بـ «حياة» ؟

كانت تستمع له باهتمام شديد, وكأنها تشاهد فيلماً سينمائياً من نوع الإثارة والتشويق قد سعت لمشاهدته منذ أعوام, وها هي قد حانت اللحظة لمشاهدته, لم تدون في مفكرتها أي شئ, ولم تطلب أوراقاً أو حتى فتحت هاتفها الذكي لتسجل أو تدوِّن ملاحظاتها, كانت عيناها فقط تدمع ثم تتماسك حتى لا تظهر متأثرة, ونظارتها تساعدها على إخفائهم.

- «حياة» فتاة رخيصة, بل هي أرخص ما في الوجود, تعشق كل ما هو يشبع رغباتها مهما كان قذارة المقابل, لا يفرق معها, فقط تشبع هواها, وهواها يتمثل في أموال, ملابس ذات سيط مشهور, حفلات, خمور وأي نوع من أنواع المكيفات, هذه هي «حياة», افتعلت موقفاً كي تأتي إلى «الفيلا», فقمت بالاتصال بها مذعوراً أخبرها بسقوط «عزت» على الأرض دون حراك, وعليها أن تأتي لنصطحبه سويًا إلى أقرب مشفى فوافقت على الفور.

باب «فيلتي» يتوسط شجرتين ضخمتين, فمكثت خلف واحدة أحمل عصا رياضة «الهوكي» الخاصة «بالمعذب» «عزت» أتربص لها, وعندما رأيتها تتلفت يمياً ويساراً وكأنها تتسائل أين الحارس!؟

فاقتربت من خلفها وصفعتها بالمضرب على رأسها كأني أضرب كرة «الهوكي» تماماً, فسقطت أرضاً فحملتها على الفور إلى الداخل وأجلستها على نفس الكرسي الذي كبلُّت عليه «

المعذب» «عزت» ثم أحكمت تكبيلها أنتظر حتى تفيق, صعدت الدرج في همة إلى الأعلى أبحث عن أدوات تجعلني أقضي وقتاً ممتعاً معها, فأخذت حقيبة سفر متوسطة الحجم ومررت على جميع غرف «الفيلا» أجمع ما أراه مناسباً لي, فوضعت فيها أشياء عدة حتى امتلأت, سمعت همهماتها وبكائها فأخذت حقيبتي وهرولت على الدرج إلى أسفل قادماً إليها, شعرت بخوفها, برجفتها, بدموعها, فكدت أتقيد في الحديقة دون سبب, أما هي, لديها العديد من الأسباب, أخرجت مقصاً وأمسكت بشعرها المموج, واقتربت بالمقص من أذنها اليمنى أفتحه وأغلقه عدة مرات حتى سمعتها تجهش في البكاء, وهمهمتها باتت أعلى من قبل, فابتسمت وأخذت أقص خصلات شعرها حتى قصر ثم أصبحت غير قادر على الامساك بشعرها مرة أخرى, ذهبت أقف أمامها لأطلِّع على هيئتها الجديدة فانفجرت من الضحك والتهليل, وانهارت هي من البكاء, فعدت مرة أخرى إلى حقيبتي أبحث عن شئ جديد أفعله, وجدت ماكينة حلاقة للشعر محمولة تعمل بالبطارية, فأخذتها ووضعت بطارياتها بداخلها وقمت بتجريبها, إنها تعمل, حلقت كل شعرها حتى أصبحت بلا شعر, ثم قمت بحلاقة حاجبيها ثم نطقت :

- منذ الصغر لم أجد صديقاً لي, فكنتِ أنتِ الصديقة, كبرنا وأوهمتيني بالاعجاب, فأحببتك, صدمتيني بحفلاتك وسكرك, وصخبك, وقبلت بسبب حبي لكِ, فقمتي باستغلالي مادياً, وكان

ذلك لا يعني لي أي شئ, لكن لن أقبل أن أراكِ تتمايلين في أحضان أخي, لن أقبل, مزقتي قلبي كل ممزق, والآن ستعلقين بجواره, لأعلى, ترتجفين من شدة البرد, ولكني أحب العدل, ولكي أكون عادلًا, سأشعرك بالحرارة أولاً, أخذت أوصل أطراف السلك في أنحاء جسمها ثم أمسكت بالمقبس ألوح به أمامها, فاجهشت بالبكاء مرة أخرى, فقد قضيت عليها كما قضيت على «عزت», في طريقة التخلص منه, وطريقة تجميده في لوح ثلج, ثم جعلتها معلقة بالغرفة المجاورة لغرفة عزت بينهما فاصل بلاستيكي سميك.

فقمت بسؤاله بسرعة حتى لا أعطيه فرصة للتفكير, كان يتحدث وكأنه شخصية كارتونية أمريكية لبطل خارق ينقذ البشر من الأشرار, كان يتحدث بفخر عمَّا يفعله, وكيف خطط وكيف صنع وكيف أوقع بهم واحد تلو الأخر.

- وماذا عن «شريف ومراد»؟

تحدث مرة أخرى بدون تفكير واضعاً قدمه اليمنى فوق اليسرى ,وكأنه ضيف في برنامج يُذاع على إحدى القنوات الفضائية :

- بعدما التقيت بـ «شريف» وقابلني باحترام في أول اللقاء فقط, بعدها حاول استفزازي وأخذ يذكرني بمقلب أعده لي قديمًا, عندما ألصق ببنطالي ذيلًا مصنوعاً يدوياً دون أن أشعر في طابور الإذاعة المدرسية وأضحك جميع الطلاب والمدرسين على هيئتي حينها, كذبت عليه حين أخبرته أن «مراد» قد تحدث لي ويريد مقابلتنا عندي في «الفيلا» لأمر ضروري, وأنا لا أعلم لماذا اتصل بي وما دخلي في تلك الأمور الضرورية التي تخصه, كلفني بتبليغك وها أنا قد فعلت.

سألته مستخبراً!! هل يزال علي وصال مع «مراد»؟ فطمأنني عندما أخبرني بانشغالاته الدائمة وعدم معرفته بأرقام هواتف الكثير من الأصدقاء بعد اعتماده على الرقم المخصص بعمله وإهماله بالرقم القديم, وعندما وعدني بالقدوم في نفس موعد قدوم «مراد» زادت وانتعشت حماستي.

عدت إلى «الفيلا» أفكر!! وأفكر!! حتى فشلت في ابتكار طريقة استقبال جديدة غير فكرة استقبالي إلى حياة

جائني «مراد» أولاً, فأخذ ينادي عدة مرات وهو واقفاً علي البوابة حتى أربكني وكدت أقول له ادخل حتى سبقني بالدخول ولكن دخل بخطوات بطيئة, فواجهته بالمضرب وطرحته أرضًا بعدما رطمت رأسه بضربة قوية, قمت بسحبه إلى جانبي بجوار الشجرة وكممته وقيدت يديه وقدميه, وأخذت أمسك المضرب وأحكمه جيدًا بقبضتاي متوارٍ خلف الشجرة متحمسًا ومترقباً لقدوم «شريف», حتى وصل بعد بضع دقائق مدلفاً إلى «الفيلا» مباشرةً, فهرولت إليه من الخلف وطرحته أرضًا من ضربة واحدة, أصبحت يداي تعرف قدر القوة والسرعة التي تطرحهم أرضًا من ضربة واحدة, كممته هو الآخر وقيدت يديه وقدميه وسحبته كأسد يسحب فريسته إلى مكان هادئ ليلتهمها تحت الشجر هو وأبناؤه في هدوء واستمتاع, أجلسته علي الكرسي الذي كنت قد قيدت عليه أخي «المعذب» «عزت» قبل أن أحتفظ به في لوح ثلج, وأسرعت لأحضر «مراد» الذي كان يحاول فك أسره, فركلت رأسه بقوة كما يركل لاعب الكرة ضربة جزاء في مباراة حماسية في الدقائق الأخيرة من زمن المباراة حتى خرت قواه, سحبته وقيدته في كرسي بجوار «شريف».

عندما استردا وعيهما أخذت أهلل وأرقص أمامهم كأني عدت طفلًا في المدرسة أشمت فيهم وأقوم بغيظهم, هم من دمروني عندما كنت طفلًا صغيرًا, قاموا بإحباطي حتى أفقدوني ثقتي في نفسي وعدت لا أطيق التعليم بسببهم, أخبرتهم بما فعلوه بي في الصغر, وسط فزع «شريف» وحركاته الدائمة علي الكرسي, وهمهمات «مراد» المتوسلة في ظاهرها الغير مفهومة على الإطلاق.

فتحت حقيبتي وأخرجت (سلاح قطر) وأخذت أرسم لهم شوارب ولُحى على وجوههم كأني أعبث بصورة امرأة منشورة في جريدة قديمة أمثل بها حتى أحول صورتها لصورة رجل رشيد, وكدت أن أموت من كثرة الضحك على ما بدو عليه,ضحكت في حالة هيستيرية حتى مللت, فقمت بصعقهم بالكهرباء مرة واحدة, وكررت فعلتي حتى كانت نهايتهم الموت ثم التجميد داخل ألواح الثلج متراصين بجانب «حياة» و«عزت», ثم خلدت إلى نوم هادئ عميق بعدما انتهيت من الاستحمام والتطهر من نجساتهم.

تبادل الحديث بينهما بأسئلة وإجابات سريعة ،

- هل كنت تشعر بالراحة بعد وضعهم في ألواح الثلج؟

- جدًا... كنت أشعر بأنني استرد ما أخذ مني.

- لم تندم لحظة؟

- لا .

- هل كنت تشعر بشئ ما بداخلك يحركك ويقودك لفعل تلك الأفعال؟

- لا... كنت أخطط ولم أشعر بأنني اقترف خطأ, هذا العدل.

- وهل العدل لنا أحقية في تحقيقه على الأرض؟

- نعم

- اختلف معك, الله فقط هو المسؤل عن تحقيقه.

- والقضاء؟ قالها ليجعلها تخطأ

- والقضاء طبعًا, وهذا اجتهاد في غاية الصعوبة, وتحكمه دساتير وقوانين وضعتها أمم البلاد, كل أمة حسب شريعتها أو عاداتها وتقاليدها.

- وهل سينصفني القضاء؟

- وهل لجأت إليه؟ ربما كان ينصفك من أخيك.

- كانت المدرسة نصفتني.

- كيف تقارن مدرسة بقضاء؟ ولماذا لم تتعرض لمدرستك؟

- لا أعلم إذا كان لديها أطفال أم لا, ولكني اعتقد أن لديها من الأطفال الذي لا أحب أن يتجرعون الآلام بسببي

طرقات ثلاثة آتية من باب غرفة آدم أوقف الحديث اتبعها صوت مفا تيح

- هل من مقابلة الضابط «عادل شوقي»؟

قالها الممرض الخاص بالمتابعة لحالة «آدم» وهو واقفًا عند الباب

لم يتقدم خطواة واحدة, تظهر ملامح الارتباك والقلق علي وجهه تأثرًا وحزنًا علي الضابط «حمدي» في حادثة الأمس, وكان خلفه الضابط «عادل شوقي» يقف واضعًا يديه في جيوب بنطاله ناظرًا لدكتور «هدير» وملامحه تدل علي انعقاد جلسة طويلة بعض الشئ.

- اعتذر لكِ دكتور «هدير», لقد سمعت حديثكم عبر مكبرات الصوت المخفاة بدخل غرفة عزل «آدم» فهي دائمًا ما يوضع فيها هذه المسجلات, وأريد تفسيرات على أقواله المعترف بها.

زفرت زفرة هادئة وعلى ملامحها الضجر مما قاله .

- حسنًا, لم أتحدث عن انتهاك خصوصيات الغير في الوقت الحالي خاصة لو كان المتهم مريضًا, ولكن لدي بعض الشكوك في مرض «آدم» ولابد من مناقشة أمره أمام لجنة طبية ترأسها دكتور «سهام الطيب» مديرتنا لاتخاذ القرار الحاسم.

- إذن, سأتصل بها على الفور, أريد غلق أي ملف متعلق بـ «آدم» في أسرع وقت, لا أريد المزيد من الضحايا.

لم تكن حدة حديثه مفتعلة على الاطلاق, بل هو حقًا أراد بكل حزم وسرعة في وضع نقطة نهاية في سطر أوشكت كلماته علي الانتهاء.

تم تحديد موعد مع دكتور «سهام الطيب» بعد ثلاثة أيام فقط.

***

«ثلاثة أيام»

مـر اليـوم الأول عـلى دكتـور «هديـر» كلـه لا تخـرج مـن غرفتهـا المظلمـة دائمًـا, بنافذتهـا المفتوحـة دائمـاً والتـي تسـمح للريـاح بالعبـث بمقتنيـات الغرفـة بحريـة لا حـدود لهـا, جالسـة في منتصـف فراشـها, يهتـز جسـمها الأعـلى للأمـام والخلـف بسرعـة منتظمـة, ولكـن في صمـت وهـدوء بعيـداً عـن موسـيقاها الصاخبـة, لم تقـوَ عـلى مهاتفـة أي شـخص يتصـل بهـا, كانـت يداهـا تحتضـن هاتفهـا تنظـر لـه عندمـا يضـئ ويهتـز بعـد إلغـاء خاصيـة رنـين الهاتـف وخفضـه لأقـل مسـتوى, تنظـر فقـط لاسـم المتصـل ولا تـرد عـلى أحـد, حتـى «عاصـم», وكأنهـا تصـارع شـئ مـا أو تنتظـر اتصـالًا آخـر, حتـى رأت اسـم دكتـور «سـهام الطيـب» عـلي هاتفهـا, فتنحنحـت وشـهقا شـهيقًا لتهـدأ قبـل الـرد

- دكتور «سهام», كيف حالك؟

- دكتور «هدير»... أنا بخير.. أين أنتِ؟

- وددت الاتصـال بحضرتـك بالأمـس؛ ولكننـي اسـتحييت أن أشـغلك معـي, وأنـا أعلـم جيـدًا مـدى المسـئوليات التـي تحملينهـا عـلى عاتقـك

- أبدًا... أنتِ تعلمين قدرك عندي جيدًا .

- هل لنا أن نتقابل في الغد؟

- نعـم... أهاتفـك مـن أجـل ذلـك, أود أن أعلـم التطـورات التـي طـرأت عـلى حالـة «آدم» قبـل عرضـه عـلى اللجنـة, فأنـا أثـق فيـكِ وفي مجهوداتـك المبذولـة .

- حسنًا دكتور «سهام»

أما في اليوم الثاني خرجت بعد مقابلة دكتور «سهام» منتشية بعض الشئ, فقررت مقابلة «عاصم», وجلسا في مطعم يتناولان وجبة الغداء, وبعد توضيحات كثيرة لـ «عاصم» عن مدى قلقها وضغوطها الدائمة بسبب عرض مريضها على اللجنة, ورجائه بعدم الخوض في التفاصيل الخاصة بـ «آدم» لترك مساحة لعقلها من الراحة قبل العرض علي اللجنة, فقررا الذهاب إلى إحدى دور العرض لقضاء وقتًا ممتعًا معًا.

أما في اليوم الثالث, قامت دكتور «هدير» من نومها تكرر ما حدث في اليوم الأول حتى خلدت إلى النوم لتستيقظ مبكرًا للذهاب إلى المشفى الخاصة بالأمانة العامة للأمراض النفسية والعصبية لعرض «آدم» علي اللجنة الطبية للتأكد من سلامة حالته النفسية من عدمها.

***

«اللجنة»

غرفة واسعة بعض الشئ, طاولة مستطيلة بجوار نافذة تخترقها أشعة الشمس, يجلس عليها ثلاثة أطباء, دكتور «سهام» تتوسط المجلس وعلى يمينها نائبتها وعلى يسارها دكتور «هدير», ويجلس أمامهم الضابط «عادل» في الجهة المقابلة للدكتور «هدير», أما الكرسي الذي يواجه نائبة دكتور «سهام» خالي, طرقات ثلاثة سريعة على باب الغرفة ليدلف منه الممرض الخاص بمتابعة «آدم», وعسكريان آخران يحكمان حركة «آدم» المكبلة يديه ويقودانه بداخل الغرفة حتى أوقفاه أمام اللجنة .

- كيف حالك يا «آدم»؟

قالتها دكتور «سهام» بثبات

- كيف ترى دكتور «هدير»؟

فأشار «آدم» بإبهامه الأيمن أي جيد, ثم مسح بيده فمه أثر تدلي القليل من ريقه على إحدى جانبي ذقنه.

فبادرته دكتور «سهام» بسؤال واضح :

- هل تشعر بالارتياح معها في الجلسات؟

فأومأ برأسه أي نعم,

فبادرت نائبتها بسؤال مباشر :

- هل تتذكر حادثة الضابط «حمدي الشاذلي»؟

تكلم هنا «آدم» بلا مبالاة وعيناه ناظرة إلى أسفل ولم ينظر إلى أحد:

- كان ينقصه لوح ثلج .

فتكلمت دكتور «سهام» هنا وأدارت الحديث:

- لماذا العنف يا «آدم»؟ وماذا فعل معك؟ ولو فعل خطأ, لماذا لم تخبرنا أقصد الشرطة كي يردوا لك حقك؟

- هو يستحق .

- و»حياة»؟ و»عزت»؟ وأصدقاؤك؟

- نعم... كلهم يستحقون .

- وأنت... ماذا تستحق؟

- الإعدام .

- لماذا؟

- لأني قتلتهم ومثلت بجثثهم واكتفيت, أذوني فأذيتهم, فقط أخذت حقوقي.

- إذن أنت تدري لما تفعله وتعي له؟

- بالطبع .

- معترف؟

- نعم, وأرى أشباحاً وأتكلم معهم كل يوم يخبرونني أنني كنت على صواب .

- إذن لماذا كل هذا الوقت؟ تعترف بأفعالك الشنعاء وتعي لها جيداً, لماذا ادعيت المرض إذن؟

- مرض؟ أي مرض؟ أنتم من تدعون ذلك !

- لن تدخل هذه الألاعيب على عقلي ولا تقنعها, بعد ثواني ستقرر اللجنة بصحة قواك العقلية والنفسية, واحتمالية إعدامك باتت قريبة, وأعلم إنك قد أخطأت لما أردت أن توهمنا به, فمرضى السادية لا يعانون من الهلاوس السمعية والبصرية.

تدخَّل هنا الضابط عادل قائلاً :

- هل طبيعتك الهدوء والاستسلام؟ إذن كيف قتلت الضابط «حمدي الشاذلي»؟

- نظر له «آدم» لبرهة, وفي صمت أومأ بكتفيه إلى أعلى مع بروز شفته السفلى وزفر زفرة, كأنه أرد الرد لكنه على يقين أن رده لن يجد بشئ مفيد, هل يفيد شيئاً إذا افتخر بذكائه في قتله مثلاً؟ أم يتعجب من إرادة الله في انتصار عبد هزيل مثلي على ضابط شرطة قوي البنيان ذي سلطة تنفيذية مثله؟

فتكلمت دكتور «سهام» بصوت مرتفع وهي تكتب تقريرها :

- بحضور كل من «وذكرت اسمها واسم الطبيبتين» ممثلين اللجنة

الطبية الخاصة بحالة المتهم «آدم السعدني», وبعد الاطلاع على تقرير دكتور «هدير» والمسئولة عن متابعة حالة «آدم السعدني» والكشف عليه, قررت اللجنة بسلامة وصحة الحالة العقلية والنفسية للمتهم «آدم السعدني» وادعائه المرض, ثم تم توقيع جميع أعضاء اللجنة على التقرير, وأشار الضابط «عادل» لعساكره ليتم رجوعه إلى غرفته وقام بمهاتفة زميل له على ترتيب نقله للسجن في زنزانة خاصة وانتظار تنفيذ الأوامر وانتهى الأمر.

***

«الخلاص»

أيـام قلائـل مـرت عـلى»آدم» حتـى ارتـدى لباسـاً باللـون الأحمـر, وحيـداً لم يـزره أحـد منـذ قـام بتصويـر لـوح الثلـج التـي نشرهـا عـلى حسـابه الخـاص في إحـدى مواقـع التواصـل الإجتماعـي عـبر صفحـة تحمـل اسـم لـوح ثلـج, يعـرض صورتـه في إطـار دائـري يوضـع عـلى يسـار الصفحـة الإلكترونيـة معرفـاً شـخصيته للجميـع كاتبـاً جملـة تعريفيـة «مـن يريـد التخلـص مـن الأشرار عليـه مراسـلتي» تـاركاً عنوانه وهاتفـه, يعـرض للجميـع بصفـة يوميـة صـور ضحاياه معبراً عـن الآلام التـي تعـرض لهـا مـن الشـخص المجمـد داخـل لـوح ثلـج مـبررًا فعلتـه, حسـبه المـترددون عـلى صفحتـه أنـه يسـخر أو يكـذب ويريـد شـهرة ليـس أكـثر, والبعـض صدقـه ولام عليـه, والبعـض الآخـر أشـفق عليـه, حتـى أخـذت الشرطـة حيطتهـا وتحـرَّت عـن الأمـر وتأكـدت مـن صحـة مـا نـشر عـبر صفحتـه فقامـت بالقبـض عليـه وغلـق الصفحـة وغلـق «الفيـلا» بالشـمع الأحمـر.

مقتطفـات مـن شريـط ذاكرتـه يمـر أمـام عينيـه في كل لحظـة, يحمـل آلامـه في كل مرحلـة مـن مراحـل عمـره, لم تدمـع عينـاه منـذ فـترة, يصفـون الدمـوع دائمًـا في الأشـعار والروايـات بأنهـا حارة, ولكـن العكس أرى, قـد تكـون الدمـوع حـارة في بدايتهـا, خاصـة في بدايـة نزولهـا إذا كان الجـرح هـو الجـرح الأول, لكـن سرعـان مـا تفقـد حرارتهـا مـن كـثرة البـكاء وملـل انتظـار الـدواء, رويـدًا رويـدًا تقـل حرارتهـا حتـى يتمكـن اليـأس منهـا, فتتجمـد المشـاعر, وتقـل الانفعـالات, ويكـون القلـب مسـتعدًا لتلقـي أي ألم, قـد يصبـح لا فـرق بـين ألم جديـد أو قديـم, اعتيـاد الألم تجعـل الدمـوع تتجمـد وتتيبـس بداخلـك ويكـون

الألم داخليًا يغور في أعماق القلب, يمزق كل ما هو متماسك, فلا قيمة لدموع تزرف أمام من لم يرها ويشعر بها وما تحملهمن آلام, ولا مجال لأي رد فعل ليجبر بخاطرها ويداوي جرحها .

بعدما قضى «آدم» على «عزت», «حياة», «شريف», «عادل» أكثر من آذوه نفسيًا, ونهى عليهم ووضعهم في ألواح ثلج, كان يرتدي بدلة الجليد الصفراء ويجلس أمام جثثهم المعلقة يتحدث لهم بالساعات, يلومهم تارة, ويقبحهم تارة, حتى مل, وكره حياته التي لا يتخللها هدف واحد أو طموح واحد يجعله يعيش من أجله, فأمسك باللوح الألكتروني الخاص به وأنشأ صفحته المسماة بلوح ثلج كنوع من أنواع تفريغ طاقته في الانتقام وإرادة إثبات انتصاراته أمام الجميع لا يخشى محاكمة هو يتمناها حتى يتخلص من آلامه, وبين عرض المساعدة لكل من يشبهه في الانتقام من مَن آذوه.

في صباح اليوم التالي لم يطرق على الباب طرقة واحدة, لأن صوت المفتاح هنا يعنى شيئاً واحداً, يعني انتهاء الحواجز لينفذ حكم الإعدام, دلف عسكريان إلى غرفته, أحكما قيده بدون أن يتفوها أي كلمة, وقاداه إلى غرفة واسعة, بها حبل المشنقة معلق من أعلى, ثابتًا كعسكري بالقوات المسلحة أمام عرض عسكري يعرض أمام رئيس الجمهورية, وشيخ بزي أزهري, ورتب لم يلتفت لقيمتها «آدم», حتى أخرج واحد منهم ورقة ليبدأ بقراءة الحكم المنفذ على «آدم», كانت ملامحه الداخلية حزينة ولكن أظهر رضاه بهزة رأسه التي تعني نعم أعترف بما تقرأه, داخليًا كان يشعر بظلم قد وقع عليه من يوم ولادته, ولكنه يريد أن ينتهي الألم في أسرع وقت, ردد الشهادة خلف الشيخ

ولم يرد شيئًا سوى كوب من الماء ثم صعد درجتين ليرى وجه العسكري المسمى بـ (عشماوي), الذي يتسم بضخامة الجسم والوجه العابس الجاد, ليكن وجهه هو أخر وجه يراه ثم ظلمة كادت أن تخنقه, فارتضى لغلق عينيه حيث لا ضوء ولارؤية بعدها حتى سمع صوت مفاجئ ثم شعر بعدها أنه معلقًا من رقبته في الهواء, حاول أن يقاوم كسر قصبته الهوائية ولكن بدون فائدة, فاستسلم استسلاماً تاماً لا مقاومة من بعدها مرة ثانية, لينتهي «آدم» ولتنتهي معه آلامه للأبد.

***

«استفاقة»

عندما طلبت دكتور «سهام» مقابلة الضابط «عادل شوقي», كانت ليالي دكتور «هدير» متشابهة, تمكث على فراشها تحافظ على هزات منتصف جسدها الأعلى للأمام والخلف, موسيقاها صاخبة, نافذتها مازالت مفتوحة للرياح, وغرفتها دائمة الظلمة, حتى فركت وجهها بيديها استعدادًا لترك الفراش, أخرجت دفترًا أزرق اللون عليه رسومات لحبيبات الثلج المتناثرة مختلفة الأحجام, دفترًا يحاكي طبيعة برودة الجو بالخارج, فتذكرت «آدم» وألواحه الثلجية, ثم بدأت بالكتابة دون تفكير.

***

- سيد «عادل» أشعر بالقلق والمغالطات تخص حالة «آدم السعدني».

قالتها دكتور «سهام الطيب» للضابط «عادل شوقي» بقلق وقلة حيلة ترجو منه حلاً

- القضية أُغلقت بإعدام «آدم» يا دكتور .

- نعم ولكني لا أفهم لماذا قامت دكتور «هدير» بالتوصية على تناول «آدم» دواء (ريتالين) ثم لجأت لدواء (زوبيكلون) فيما بعد؟

- معذرةً دكتور, أنا لا أفهم في الدواء

- دواء (ريتالين) من الأدوية الخاصة التي تعمل على تنشيط الدماغ, وتستخدم لعلاج الاضطرابات وأمراض مرتبطة بالجهاز العصبي, وهو عبارة عن منشط ذهني لزيادة التركيز, وعبرَّت

دكتـور هديـر في تقاريرهـا أنهـا لجـأت لـدواء (ريتالـين) لأنهـا طلبـت مـن «آدم» معرفـة مشـاكله والتعـرف عـلى آلامـه بنفسـه, في محاولـة لإيجـاد حـل نفـسي يسـاعده في العـلاج, دواء يجعـل المريـض غـير قـادر عـلى النـوم يركـز فيـما يفكـر فيـه تركيـزًا طويـلًا, وفي هـذه الحـالات نلجـأ للمهدئـات أكـثر ونميـل لها,لنجعـل المـخ يشـعر بالراحـة ولـو قليـلًا, نحتـاج لراحـة الدمـاغ والحفـاظ عـلى هـدوء أعصـاب المريـض, أمـا (ريتالـين) يؤثـر عـلى الحـالات النفسـية المشـابهة لحالـة «آدم» بالسـلب, لأنهـا تسـبب اضطرابـات في التفكـير وتفاقم مشـاكل السـلوك, فيصبـح أكـثر عنفًـا وأكـثر عدوانيـة, واعتقـد تناولـه لهـذا الـدواء سـبب مـن ضمـن مجموعـة أسـباب أدت لاعتدائـه عـلى الضابـط «حمـدي الشـاذلي»

- هـل تقصديـن أن دكتـور «هديـر» تعلـم ذلـك الأمـر أم أخطـأت في العـلاج؟

ردت وكأنها تفكر في الأمر

- دكتـور «هديـر» مـن تلاميـذي المقربـين والمتفوقـين, زاد اسـتغرابي للأمـر عندمـا غـيرت خطـة العـلاج فجـأة, واسـتبدلت (ريتالـين) بـ (زوبيكلـون) فهـو دواء مـن أعراضـه الكسـل التـام لأنـه منـوَّم وقـد يسـيل لعـاب المريـض مـن فمـه لأنـه يشـعره بعـدم التحكـم في الفـم, وقـد يؤثـر عـلى الذاكـرة ويصيـب متناوليـه بـ (الزهايمـر), غـير ذلـك يـؤدي لإزدواج الرؤيـة أو بمـا يسـمى بزغللـة العـين, لذلـك كان آدم مستسـلمًا هادئًـا غـير قـادر عـلى الـكلام إلا بالـكاد أثنـاء عرضـه عـلى اللجنـة حينهـا.

- هل تعتقدين أنه خطأ طبي في طريقة العلاج؟

- لا أعلم, ولكن ربما نعم لأن دكتور «هدير» أعرفها وأحترم وجهات نظرها في طرق العلاج.

- لكن لابد من مناقشة طبية لطرح وجهات النظر, ولكني أود الحضور.

- أنا لا أمانع.

- إذن لابد أن نجلس نتحدث سوياً عن خطة علاج «آدم» وبصورة ودية لكن في أسرع وقت.

وبعد ساعتين من محاولات اتصال فاشلة, قررا الذهاب إلى منزل دكتور «هدير» بالسيارة, ولكن دائمًا تصل إلى حقيقة الأمر في اللحظات المتأخرة, طالما تهمل مسئولياتك وتثق الثقة العمياء في من حولك دون أن تحرص علي رؤيتهم بصورتهم البشرية الطبيعية

***

«مواجهة نفسية»

فتحت دكتور «هدير» صفحتها الأولى كاتبة :

إلي اللقاء ..

أبدأ خطابي آملة في لقاء آخر في مكان آخر يكون أفضل مما أنا فيه, في عالم أطهر, فيه رحمة أرجوها من مليك مقتدر, في عالم عليم يعلم ما تكنُّه صدورنا, يعلم ما تحمله نفوسنا, يعلم ضعفنا وكسرتنا وشقاءنا, يعلم الأسباب التي جعلت أطفال ومراهقين وشباب ليصبحوا أشر الناس على الأرض, يعلم النقطة الفاصلة والفارقة التي جعلتنا نحارب صفاء أرواحنا لنصبح قادة من قادات الشيطان اللعين.

أنا «هدير».. طبيبة نفسية وعصبية, درست القانون بعدما التحقت بجامعة أوربية تدرس موادها عبر شبكة الإنترنت بتقنية (مقاطع الفيديو) تبث مباشرةً في مواعيد محددة, درست القانون بشغف حتى أجعل العالم كمادة لينة بين يدي أشكلُّها كما أريد, وقد فعلت.

طبيبة سخرت العلم والقانون لها كي تتلاعب بكليهما لتحقق أغراضها التي في ظاهرها الشر وتبطن بداخلها الحق, لا أعلم من هو الشخص الذي سيقع خطابي بين يديه أولًا, ولكن بدون شك ستصل كلماتي للجميع لا محالة.

هل ستتعاطف معي ومع الظروف التي تعرضت لها ونشأت فيها؟ أم لا؟ ستقسو عليّ وتبتهل في الدعاء عليّ؟ على أي حال

قراري الذي ستعرفه في نهاية الخطاب ناتج لسببين, أولهما إنني خنت مهنتي وقسمي الذي نويت بعدم الوفاء به منذ الخطوة الأولى التي خطتها قدمي بداخل كلية الطب بخطوة واحدة من داخلها بألَّا أفي به, والآخر هو عدم الرضا عمَّا فعلته, ما فعلته قليل جدًا لما تحمله نفسي, فلم أشف غليلي بعد, إليكم قصتي ولا أهتم بتعاطف أو قسوة في حكمكم, فأنا الآن في مكان آخر.

«حسني عبد الشافي», رجل من أصول صعيدية, وورث من بلدته كل صفات أهل الصعيد حتى تأصَّلت فيه, أسمر البشرة, عريض المنكبين, مفتول العضلات, صاحب عينين بنية اللون بالصفة الداكنة, عينين إذا غضبت, أطلقت رصاصاتها, وإذا حنَّت, فاح منها عبيرها, لغة الأرقام سيطرت على عقله, فكانت حياته كلها محسوبة بمسألة جمع رقم واحد برقم واحد كان ناتجهما من المستحيل أن يكون رقم آخر سوى رقم إثنين, عصبي المزاج وأقل الأشياء التي تمس أهل بيته تجعل نيران الغيرة تلتهم كل ما هو أخضر ويابس أمام عينيه.

أمَّا «سهير عبد الدايم», المرأة القاهرية الفاتنة, صاحبة البشرة المائلة للبياض, وصاحبة العيون العسلية التي تتميز بنظرات جذابة تجعل الثلج المتيبس يسيل من شدة جمالها, متوسطة الطول, وأناقتها عنوان لها, ارتدت الحجاب بعد زواجها من «حسني» مباشرة, كانت تتهمه دائمًا بالعصبية والغيرة المفرطة, وكان شجارهما الدائم بسبب عملها, ولكنها اتخذت عهدًا عليه قبل الزواج بأنه لا يحرمها من تحقيق ذاتها ومحو أمانيها في مقابل هي أن تتحمل غيرته.

أما أنا «هدير حسني عبد الشافي», ابنة «سهير عبد الدايم» الوحيدة, التي عندما كبرت كانت ككرة تتدحرج بين غيرة أبيها المفرطة, وخوف أمها الدائم عليها, اتهمني البعض بعدم الاحساس عندما تنازلت عن حجابي بعد وفاتهما مباشرةً, والبعض اتهمني بالتعرض إلى صدمة نفسية أفقدتني السيطرة على تصرفاتي وسلوكياتي, ولا يعلم أحد حبي إلى الله وقدره عندي, فقد كنت أتمنى أن يساعدني شخصًا أن يشجعني على أن أذهب إليه بتيقن وقد تيقنت, لا أريد من يرسم إليَّ خطواتي في الطريق, ولكي أصل لابد من السير عليها, أي إنسان عاقل راشد لا يرغب في أن يكون مثل العرائس المتحركة, يحركها صاحبها كيفما يشاء, الوصول لأي هدف تود تحقيقه, يجب عليك أن تؤمن به أولًا, وإن آمنت به,فلا تتخل عنه أبدًا.

كانت «سهير عبد الدايم» تعمل سكرتيرة خاصة ومسئولة عن جميع شركات «آل السعدني» وكان «السعدني» يعتمد عليها في جميع أموره الخاصة بمجموعة شركاته, كانت أمي تفتقد مهارة الذكاء الإجتماعي, فكانت تخبر والدي بمتلكاته وقدرته الفائقة في تغيير سيارته الفارهة في أوقات سريعة ومتقاربة, حتى كانت تخبره بهيئته, كانت تقول أنَّ عيونه خضراء, وبشرته خمرية, وشعره ناعم, تلاحظ من هيئته أنه رياضي رغم كبر سنه, فكان والدي يشطاط غيظًا عندما يسمع منها تلك الكلمات, كانت تخبره بدافع أنها لا تقدر أن تخفي عليه خبر, وأن يظل واثقًا فيها, لا أعلم هذا يسمى غباء إجتماعي أم أمانة؟ أم كانت تعشق غيرته عليها؟ حقًا لا أعلم, حتى جاء اليوم المشئوم.

هرعت أمي إلى المنزل عائدة من عملها في يوم عطلة رسمية, سبقها

شجار كالعادة بينها وبين أبي في اليوم الذي يسبقه, هي تحاول أن تقنعه بأنه عمل, وهو يتحفظ على عملها في يوم راحة لهما مهما كان المقابل المادي أو المعنوي, الحجة التي أنهت الشجار أن «السعدني بيه» يحتاج إلي بعض الاستشارات في تطوير بعض الفروع الخاصة بشركة من شركاته, وإنها فرصة هائلة وهادئة للتفكير والتخطيط ودراسة الأمور الهامة والمشورة بدون أي ضغوط وفي صفاء ذهني في مقابل مكافأة مجزية, وكان والدي يرى أن الأمر مبالغ فيه ولا نحتاج إلى تلك المكافأت المجزية.

عندما عادت أمي إلى المنزل أسرعت إلى دورة المياة بهيئة غريبة بعض الشئ, ففزع والدي من دخولها المريب, فطرق الباب عليها عدة طرقات ليستكشف الأمر, فأخبرته بأنها تستحم, دقائق طويلة ثم انتهت من استحمامها الذي طال ونحن بالخارج قلقان بشأنها, فأدلفت مسرعة بنفس سرعتها السابقة متجهة إلى غرفة النوم فارتعبت عندما وجدت والدي جالسًا منتظرها على الفراش, حتى استرقت السمع لحديثهما بسبب علو صوتهما وبسبب اهتمامي بالأمر أيضًا.

- ماذا حدث؟

- لا شئ

- لا تكذبيي عليّ, وطيلة عمري معك لم تفعليها, أعرف تفاصيلك.

- لست قادرة على الحديث الآن.

- بل الآن

فاجهشت بالبكاء فأصابني الرعب حتى أدلفت إليهم كي أطمئن على أمي التي رأيتها جالسة على الفراش تبكي حتى أراد والدي أن يضمها إليه لكنها ارتعشت وابعدته وابتعدت عنه كأنها لا تستحق منه أن يلمسها, كأنها موحولة في وحل متسخ ولا تريد ليديه أن تتلطخ بمتسخها, فأشار لي والدي بأن أخرج, فلبيت إشارته.

- لماذا تبتعدين عني يا «سهير»؟

- ليتني أجبت طلبك وأطعت أمرك.

- حديثك يقلقني, وإن لم تتحدثي الآن فسوف أغضب غضبًا شديدًا ولا أدرك حينها ما سيكون تصرفي.

- سامحني يا «حسني».

- ماذا حدث؟

- عندما ذهبت لـ «السعددني» وجدته معتدلًا في حديثه, وبدأ الحديث عن بعض الفروع التي تحتاج إلى تطوير في بعض الأقسام وهو في طريقه لإحضار الماء, كنت منشغلة في بعض الملفات وأتفحص أوراقها, وفي نفس الوقت كان بالي منشغلًا بسرعة تغيير شكل مكتبه, غرفة مكتب كبيرة, مكتب خشبي كبير في المنتصف بالقرب من الحائط المقابل لباب المكتب, يعلو المكتب حاسب آلي محمول فضي اللون, وملفات وبعض الأوراق, أمامه كرسيان وعلى يمينه مكتبه تستعمل في حفظ الملفات, وعلى يساره صالون مغطي بالجلد الأسود من النوع القيم, فقد تبدل بفراش متوسط الحجم, وبجانب الفراش زجاجة أظنها نوعاً من أنواع الخمور, أخبرني عند

دخولنا إلى المكتب أنه حضر إلى هنا بالأمس كي يقضي ليلته هنا, لسبب كثرة وشدة اهتمامه بأمور تطوير الفروع, انتبهت لغلق باب المكتب بالمفتاح وأنا أتصفح الأوراق....

فبدأت بالبكاء وهي تكمل حديثها بشهقات بكائها

- قد غير ملابسه تمامًا مرتديًا ملحفة كبيرة وهو يقول

- الليلة من أسعد الليالي

- ماذا تفعل؟ ولماذا أغلقت الباب؟

- أنتِ لي, كنتِ مطلقة أم متزوجة فأنتِ لي

- فأسرعت إلى الباب حتى أحاول الخروج فصفعني على وجهي صفعة قوية, فأصابت أذني طنينًا, وقلبي علت وأسرعت دقاته, فحملني وذهب بي للفراش, وأجهشت بالبكاء منهارة, فخرج والدي من الغرفة مسرعًا, بوجة بركاني, وهي تنادي عليه حتى عادت مسرعة لترتدي بنطالًا أسود وقميصًا أزرق ناسية حجابها وممسكة بيدي وهي تطرق على باب إحدى جارتنا المقربين

- هل تركت «هدير» عندك لبعض الوقت, أمر بوقت عصيب ومشكلة كبيرة

فوافقت وأسرعت خلف والدي, علمت فيما بعد من هاتف والدي أنه ذهب لشركة السعدني من خلال تطبيق سيارات الأجرة, بعدما اكتشفت أنه قد استعمله بعد نزوله من المنزل, وأخبرني السائق أنه قد ذهب بهم إلي شركة «آل السعدني», أبلغتنا الشرطة بعد

أربعة أيام مكوثًا عند جارتنا أنهم قد وجدوهم مقتولين على الطريق الصحراوي المؤدي إلى مدينة الإسكندرية, ومازال البحث جاري ومستمرًا على الجاني, فاتهمت «السعدني» وأخبرتهم بحديث أمس, لكن بنفوذه وأمواله ومشاريعه الدائمة مع الدولة قد أفلت بفعلته, فكاميرات الشركة لم ترصد شيئًا ضده, وشهدت زوجته وأولاده بوجوده بالمنزل وعدم خروجه طوال اليوم كعادته في أيام الراحات الأسبوعية, فأغلقت القضية ضد مجهول, ولم تسع شهادة السائق اقناعهم, فيوجد احتمال بأنهم قد ذهبوا إلى أي مكان آخر بجانب محل العمل.

حدثوني بالله عليكم, هل أترك الفساد والظلم يعيش ويهنأ وينتشر كاللهيب يشتعل في أجساد البسطاء والمظلومين والطموحين والمجتهدين والصالحين أم لابد من إخماده؟

قررت إخماده بالانتقام, وأخذت أسهر الليالي والأيام والسنوات أقضيها بين سطور الكتب الدراسية بعدما قررت الالتحاق بكلية الطب لأتخصص في قسم النفسية والعصبية بعد علمي بمرض ابنه الأكبر عزت وزوجته بمرض السادية, أخيرًا وجت فائدة من حديث أمي لوالدي عن أحوال آل «السعدني» وعائلته القذرة.

امرأة سادية, يتفنن زوجها بالحجج للمكوث خارج المنزل لأطول فترة ممكنة, ويخطط لذلك خوفًا وهربًا من ساديتها, فماذا كانت تفعل معه؟ كان والدي مندهشًا من استمرار علاقتهما, لكن أمي كانت تخبره بأن كل هذا الثراء الذي يعيش فيه رغدًا كان ورثًا لزوجته قد استولى عليه مقابل تحمل مرضها النفسي,كان يخشى الفقر جدًا, فقرر أن يتعايش ويتأقلم بالوضع.

كان الحارس الخاص «بالفيلا» يمدني بالمعلومات يوميًا وبكل أخبارهم وتحركاتهم وتفاصيل حياتهم مقابل مرتب شهري خصصته له, وما أصابني حزن عميق بعد وفاة والدي أبدًا سوى علمي بوفاة «السعدني» وزوجته في حادث سفر, شعرت حينها وكأنما خنجر حديد مسنون قد نفذ في قلبي, فقررت الانتقام من «عزت» و»آدم», ولكني تأنيُت حتى أجد الفرصة المناسبة لتلتئم جراحات قلبي, كدت أن أذهب إلى «عزت» بأي حجة كي يقع في غرامي, ولكني علمت أنه يمارس ساديته على أخيه, فحدثني عقلي أن اصبري, لعل «عزت» يتخلص من «آدم» قريبًا فيكون هدفي واحدًا فقط, فكانت المفاجأة أن «آدم» هو من تخلص من «عزت», ولكني علمت ذلك الخبر في وقت متأخر بعدما قام «آدم» بالاستغناء عن حارس «الفيلا», علمت من مشفى الأمانة العامة الخاص بمجرمي الحالات النفسية بعدما استخدمت علاقاتي لأكون واحدة من الأطباء الذين يعملون بالمشفى, لأدرس حالات السادية, فعلمت بوجود «آدم السعدني» وقد أُتهم بقتل أربعة أشخاص بطريقة سادية ووحشية من بينهم «عزت» أخيه, فحدثت نفسي أن حانت الفرصة وتهيأت, سأتولى ملفه بعد موافقة رئيس القسم الذي تجمعني بها علاقة طيبة ووطيدة, أقسمت أن أجعله يتألم كما تألمت وأكثر, كنت أذكُّره بما فعله من حوادث لأثير مشاعره تجاه الألم, وكان يتألم, وكنت أسعد برؤيتي له في حالة الانهيار, كان يرجوني بأن أقرُّ بادعائه المرض في تقرير رسمي كي يتخلص من آلامه, فكنت أتحمس أكثر وأكثر أن أرى انكساره وعذابه أمام عيني, وجعلت بين أدويته دواء لا يجعله يغفل ليله, يذكره بأمّر لحظات حياته, يغير سلوكياته إلى الأعنف ويستثار غضبه من أقل الأفعال,حتى قام بقتل الضابط المتعجرف, ولكن لا تزال مشاعر

الأنثى التي تكمن بداخلي تتألم كثيراً, ما دخل هذا الضابط الذي قد راح ضحية دواء زيادة النشاط الذي أوصيت به من ضمن الأدوية الأخرى؟ فقد أقررت حينها بأن «آدم» غير مريض وأنه يفتعل أعراض المرض وأثبت ذلك بحيلة نفسية, وهي أن مريض السادية يستمتع بالتعذيب وأذى الغير, والتمثيل بالجثث يشبع متعته, وأذى الاخرين هواية يسلاها, وبالرغم من ذلك لم يقم بتلك الأفعال أو قتل الممرض الخاص به, والمتردد عليه دائمًا, وكثير الاحتكاك به, وعدم محاولته في الاعتداء عليّأنا شخصيًا بالرغم من محاولاتي لاستفزازه أكثر من مرة في بعض الجلسات؟ غير أني أوصيت له تناول دواء (زوبيكلون) ليصبح هادئاً متكاسلاً مستجيب لأي اعتراف, واستندت لاعترافه المسجل, وذكره للهلاوس السمعية والبصرية الذي هو عرض تنافى مع أعراض مرضى السادية, تحكمت بالدواء فيه كما أردت, فأقرّت اللجنة ومديري تقيمي لـ «آدم» وخاصة لاستجابته والاعتراف بحوادثه بكل استسلام بعدما غيرت دوائه ليصبح في هذه الحالة عند عرضه على اللجنة, حتى تم إعدام «آدم» من أيام معدودة.

انتهت عائلة «السعدني» للأبد والآن حان وقت انتهاء عائلة «عبد الشافي», كنت أود أن أنتقم من «السعدني» نفسه وعائلته بيدي, ولكني لم أقدم لوالدي سوى القليل في الثأر لهم ولم أشف غليلي, أشعر بالفشل, بعد كل هذه الأحداث, فلم أصن قسمي من البداية ولم تغيرني أحداث حياتي ونجاحاتي وشبكة علاقاتي القوية, ولم أنتقم لوالدي انتقامًا يليق بهم.

***

إلى «عاصم».. حبيبي الوحيد... عاصم... حقًا أحببتك... ولكني لم أقدم لك الحب الذي تستحقه أنت أيضًا... اليوم أشعر بأنني كنت أريد معرفتك منذ زمن بعيد... كان من المحتمل أن أغير فكرة ثأري لوالدي أو أغير قناعاتي... ولكني أعتقد بأنني ورثت عادات وتقاليد أصولي الصعيدية مثل ما ورثها والدي ومثل ما ورثها أبناء «السعدني» من أمهم القذرة... أنا آسفة, وأعتذر لك بشدة, وأعلم أن سكينتي قد نفذت إلى قلبك وتركت فيه جرحًا عميقًا

***

إلى الله... أنت تعلم مشاعري جيدًا, وتعلم عدد السنوات التي كنت أنزف فيها حزنًا وألمًا وحرمانًا, تعلم عدد المرات التي ضاق فيها صدري, تعلم عدد الدموع التي زرفتها عيناي, تعلم ضعفي وتعلم حيلتي, يا الله لم تعد رئتي تتحمل أن تمتليء بهواء ليس لي حقٌ في استنشاقه, لم أستحق شربة ماء رغم عطشي الآن, لم أستحق أن أحيا لدقائق أخرى, أعلم أني مقبلة علي كبيرة, لكن لعلها تكون كفارة لي عندك, أشهد أن لا إله إلا الله, وأشهد أن محمدًا رسول الله, أشهد أن الساعة حق, وأشهد أن كتابك حق, فاغفر لي خطاياي وذنوبي وارحمني فلا رحمن ولا غفار ولا رحيم ولا ودود إلا إياك.وأخيرًا... تلطفوا بأشلائي, ولا تظنوا بي ظن السوء ولا تشهروا بي حتى لا تطولكم ذنوب من فتاة لا تستحق حسناتكم.

الطبيبة البائسة الثائرة لوالديها..

هدير حسني عبد الدايم

«الخطة الدوائية لحالة آدم السعدني»

في البداية أوصيت العسكري الخاص بحراسة آدم على تناول دواء (الريالتين) لتهدئته ولمساعدته على النوم وهذة خدعة, وذلك لاتفاقي مع «آدم» في البحث عن مسببات آلامه لمحاولة مناقشة الأسباب والمحاولة على حلها ومحاولة علاجه نفسيًا, قرصين يوميًا, قرص صباحًا وآخر مساءًا, وهذا جرم مني وقد تعرفون تفاصيله من دكتور «سهام الطيب», ولكنه منشط ذهني ومنبه للجهاز العصبي المركزي.

في آخرلقاء لي بـ «آدم», أوصيت الممرض بتغيير (ريتالين) واستبداله بـ (زوبيكلون) حتى يجعله أكثر هدوءًا ومتكاسلًا بعض الشئ, حتى يمتنع مه اعتدائه على أي شخص آخر بعدما راح ضحيته الضابط «حمدي الشاذي», وهذا جرمًا أخر أكبر من جرمي الأول

تركت قلمها وأخذت تجفف دموعها وهي تحاول أن تتماسك, خشيت على نفسها من الضعف وخشيت الرجوع في قرارها, نهضت من مجلسها وهي ناظرة إلى أوراق خطابها الطويل الذي ملأته بالذكريات الموجعة والأحزان والجراحات المؤلمة, ومضات البرق أضاءت غرفتها المظلمة دائمًا, تبعها صوت الرعد المخيف, وحش افتراضي من وحوش الأفلام الأمريكية, يجهر بصوته فتتطاير السيارات والشجيرات, وهي لا يهتز لها ثابت.

أخذت خطابها وشريط لاصق وذهبت ببطء شديد إلى مرآتها, وأخذت تلصق صفحات خطابها على المرآة صفحة تلو الأخرى وعيناها تمطران دموعًا حتى انتهت من تعليق كل أوراق خطابها,

أخذت تخطو قدماها للخلف خطواتحتى شاهدت أوراقها المعلقة تخفي أجزاء منها وتظهر أجزاء أخرى ولكن بمساحات صغيرة, كأنها شاهدت أوراق ذكرياتها المؤلمة قد أخفت الكثير من حياتها وشخصيتها, أشاحت بيديها اليمنى للأعلى كإشارة تعني بأنه لا فائدة من تلك الأفكار العميقة في تلك اللحظة.

لم تهتم لهيئتها التي كانت عليها, شعرها المسدول المبعثر, قميص أسود لم تحكم غلق أزراره بالكامل, بنطال أسود واسع بعض الشئ, حافية القدمين, لا تنتبه ولن تهتم إن انتبهت.

اتجهت بنفس البطء إلى باب شقتها, وكأنها تبغض ما تفعله ولكنها مرغمة عليه, لا ترتاح لما سوف تفعله ولم ترض به, ولم تقدر على الحياة في هذا الوضع, كمن هو تائه في صحراء جرداء يُقتل عطشًا,وعندما بحث عن الماء, لم يصل ببحثه سوى للبحر, فيموت عطشًا ولكنه مضطرًا للشرب من ماء البحر المالح.

خرجت من بيتها تاركة بابه مفتوحًا كي تلفت الانتباه لحادثه مرتقبة, ولتخبر الجميع بما حدث لها وما عانته في حياتها, تاركة لهم الأسباب التي دفعتها للإقدام علي كل ما فعلته من قبل وسوف تفعله بعد دقائق معدودة, أخذت تصعد درجات الدرج في نفس البطء حتى وصلت إلى الدور السادس, فتشبثت في جدار الدرج من أثر تخبط الأفكار بداخل عقلها, وكأنها تسأل نفسها عن الخوف, لماذا أقدم على هذه الخطوة, أكل شئ حتى الآن على ما يرام, ومن السهل أن أكفِّر عمَّا فعلته, بيدى تقديم اعتذار عن ممارسة تلك المهنة المهلكة للمشاعر والذهن والجسد, من الممكن أن أعرض عيادتي للإيجار, ولدي من الأصدقاء الكثير الذين

يطمحون في أن يكون لهم عياداتهم الخاصة, وأعتقد نفس الأمر بالنسبة إلى أصدقاء «عاصم», وبذلك أكون قد أبعدت نفسي عن متاعب تلك المهنة, وسأنذر أول ستة أشهر إيجار العيادة لله تكفيراً على خيانتيللقسم وخيانتيللمهنة, لكن كيف أجد تكفيراً عن ذنب القتل, هذا قتل عن عمد, هيا اصعدي.

تركت جدار الدرج وفي بطء وثقل خطت قدماها خطوتين كأنهما لا يريدان إطاعتها في المشي, فتشبثت بجدار الدرج مرة أخرى محاولة جذب وشد جسدها لتصعد الدرج حتى وصلت إلى الدور السابع والأخير, ثم توقفت مرة أخرى محدثة نفسها

هل إذا اعترفت لـ «عاصم» سيسامحني؟ إنه يعشقني وبالتالي إذا غضب لم يقدر علي فراقي, سيسامحني بالتأكيد, حينها نستطيع السفر إلى أي دولة أخرى, نمكث فيها حتى ينتهي أجلنا هناك, ولكن هل ضميري سيرتاح؟ الأمر بات معقدًا.

ترنحت حينها وهي تحاول الصعود إلى سطوح العمارة, حيث كان يتسلل لها بعض الرياح القوية وهي في منتصف الدرج المؤدي إلى سطوح العمارة حتى تشبثت بجدار الدرج جيدًا وتبدل حالها من اليأس والاكتئاب والبطء, إلى حماس وطاقة رغبةً في الخلاص.

أدلفت إلى سطوح العمارة حتى توسطته, ها هنا أعلى نقطة في العمارة أكون واقفة, بللت ملابسها بالمطر المتساقط والرياح الشديدة, ثم قالت بصوت عالٍ:

هذا هو عزائي... وهذا هو بكاء السماء على وفاتي, فمنذ سنوات لم أر بكاء أحد على حالي غير بكاء السماء, ولكن بكاء السماء

عـذب, أمـا بـكاء الدنيـا مالـح, وملوحتـه زائـدة, ملوحـة تـؤلم الحلـق والمعـدة وتؤثـر عـلي كفـاءة الـكلى... هنـا شـهقت بضحكـة عاليـة ثـم أكملـت... الطـب مـازال يحيـى وأنـا أمـوت, يـا اللـه... لن أطيـق نفسي, وأصبحـت روحـي عبئـاً عـليّ في هـذا الجسـد العليـل, يـا اللـه مـا فعلتـه سـئ للغايـة, ولكـن كان عـليّ أن أفعلـه, يـا اللـه... والـدي, يـا اللـه... أتعبنـي فراقهـما, كنـت أحتاجهـما, أحبهـما, وقُتـلا غـدرًا مـن شـخص قـذر, ثـم راحـا في حادثـة وتـركا ابنةعذبـا وأذى أنـاس, يـا اللـه... لقـد تعبـت, تعبـت, تعبـت, ألا مـن عفـو؟ ألا مـن مغفـرة؟ ثـم أجهشـت بالبـكاء حتـى اقتربـت بخطـوات مترنحـة مـن جـدار السـطوح حتـى صعـدت عـلى الجـدار تحـاول في أن تـوازن وقوفهـا حتـى لا تسـقط دون قصـد, حتـى ثبتـت ورفعـت رأسـها باسـتقامة, خدعـت مداركهـا لمـا رأتـه, أهـذا حقيقـي أم هـلاوس سـمعية وبصريـة؟ تحـاول أن تـزن الأمـور وهـي ناظـرة لـ «سـهير» التـي رأتهـا أمامهـا ترتـدي ثيـاب باليـة مقطعـة بعـض الشـئ كأن مغتصبهـا فـك أسرهـا الآن, تبـكي ويداهـا موضعـة عـلي صدرهـا كأنهـا تحضـن شـئ, ولكنهـا تحـاول سـتر مـا تعـرى مـن جسـدها, فأومـأت «هديـر» برأسـها في إشـارة تعنـي بأنهـا آسـفة لم أثـأر لـكِ كـما يجـب.

ثـم رأت «حسـني» واقفًـا بجانبهـا عـلي مسـافة ثلاثـة أمتـار مطأطـأ رأسـه في حـرج, ثـم نظـر إليهـا يحدثهـا بصـوت رخيـم بلكنـة صعيديـة غـير معتـادة - (الـشرف كرامـة.. رأسـك عاليـة, إمـا في الأرض)

ثـم طأطـأ رأسـه في الأرض مـرة أخـرى حتـى أفاقـت مـن هلاوسـها ونطقـت بصـوت مسـموع

- كل ما عليّ فعله قد فعلته, والآن أختم أفعالي

ثم وثبت وثبة, كأنها تعتلي مسبح غطس, كي تنتهي من كل آلامها, تحلق في الهواء كطير جريح أصابه عيار صياد محترف, حتى يسقط علي الأرض مستسلمًا مستكينًا لا حراك له بعد السقوط, ولا يعلم بمستقر روحه العليلة سواء استقرت في عليين أم في سجين.

***

«وصول متأخر»

شارع مظلم, أمطار تتساقط, أضواء سيارتهما العالية تكشف خمس أفراد في منتصف الطريق بشكل دائري يمنع المرور ويعطله, جميعهم ينظرون إلى أسفل على شئ يبدو أنه مغطى, والأمر يبدو أنه حادثة ولم يصل المسعفون حتى الآن, بالقرب منهم وقف الضابط «عادل» بصحبة الدكتور «سهام» ليستكشفا الأمر, لأنهم بالفعل قد وصلا إلى منزل دكتور «هدير», وبحسه البوليسي اقترب من الجمع ليسألهم عن الأمر بعدما رأى جثة مغطاة بغطاء فراش منزلي والدماء على الأرض مختلطة بمطر السماء بدون تمييز سوى بقع الدماء التي أظهرها غطاء الفراش المنزلي الذي يغطى به الجثمان

- هذه حالة انتحار

- هذه حادثة سقوط

أخذت الناس تبدي بأرائهم في كيفية حدوث الحادثة, وأخد «عادل» يكشف عن وجه الجثة حتى رأى وجه دكتور «هدير» ثم قام بتغطية وجهها على الفور بعدما علم بأمرها.

أكمل الواقفون بجوار الجثة يكملون كلامهم :

- لقد سمعنا صوتًا يرتطم بالأرض بشدة, وعندما خرجت من تراس منزلي فوجئت بهذا المنظر البشع, فهرولت إلى الشارع لأقدم المساعدة

فرد شخص آخر عليه:

- أعتقد أنها سقطت من شرفتها

كان الضابط «عادل شوقي» والدكتور «سهام الطيب» في طريقهم صعودًا إلى منزل دكتور «هدير», كانت دكتور «سهام» قد انهارت أعصابها وأجهشت بالبكاء فاتبعته إلى أعلى دون أي تفكير أو مراجعة الأمر, حتى أدلفا إلى منزلها المفتوح حتى وجدا أوراق خطابها الطويل ملصوقًا على المرآة في شكل يدعو الناظر إلى فضول معرفة ما كتب فيه, وما فيه سوى ذكريات مؤلمة جعلتها تفعل أشياء لن تؤمن بها ولكنها كانت مضطرة إلى فعل ذلك, تركت للناس خطاب تقرُّ فيه وتعترف بما اقترفته من ذنوب وآلام طوال حياتها العصيبة.

***

«آدم» كان يمثل الإنسان, الذي تبدأ حياته في متاعب وكدّ وآلام, يكتسب الآلام منذ ولادته حتى الممات،كما يكتسب الطفل اللغة منذ تلعثمه في الكلام إلى أن يصبح رشيدًا بليغًا في إتقان اللغة والتحدث بها بطلاقة، تجرع آلامه ببطء شديد حتى استقبال الآلام من الناس المحيطين به, واستقبال الأذى الجسدي، والتنمر، ولكن يكفي أن حياته قد نبتت فيها كل أشكال الآلام, مثل الصخب في أشكاله المختلفة، منها بسبب الجهل، الفقر، الخيانة، الحب، والمرض، فكل منا له ابتلائه، وليس بالضروري على الجميع معرفة كبته أو تحمله أو تحكمه في نفسه ومشاعره، الكثير منا من تقوده نفسه إلى الثأر أو اكتساب الثقة والشعور الجيد تجاه الذات مهما كان الثمن، فلا تلوموا المخطئين على تصرفاتهم لأننا ننتمي إليهم, ولكن الله منحنا بعض القوة لتحمل هذا الصخب ويظللنا بظلال الستر، ولكن ربتوا فوق أكتافهم وضموهم إلى صدوركم وتحدثوا معهم وحاولوا مساعدتهم على تخطي آلامهم بسبب ضعفهم قبل تفاقم المشكلة.

اختيارٍ فاصل، إما أن يصبر على الآلام ويحتسب، أو يطلق لنفسه العنان في تعويض جراحاته السابقة بأي وسيلة وبأي ثمن، وكان اختيار «آدم» لا يختلف كثيراً عن اختيار «هدير» التي تنتمي لنفس النوع، ولكن كل هذا الصخب الذي سيطر على حياتهم تشكل في فقدان أقرب الأقربين لهم, وما لاقوه من أشخاص غير أسوياء نفسيًا, فرفقًا بالمرضى النفسيين لأنهم يحملون بداخلهم آلام لم يستطيعوا تحملها أكثر من ذلك.

- تمت -

ختام

لم أجد ختاماً مناسباً أكثر من فقرة المقدمة, الحياة بأيامها وسنواتها الطويلة, تزال قصيرة, والبشر مخلوقات قوية يكمن فيها الضعف, والمشاعر كالأرواح, تهنأ وتتألم, غير مادية, غير ملموسة, تجول بها مواقف وكلمات, تجعها تسعد أو تجعلها من التعساء, نفوسنا تميل للخير, لكننا نتجرع الشر جرعات, وتقبل الواقع والتعامل معه بحرص ومثابرة هو رزق يتمتع به من يفطن لذلك, ومن يغفل... يتجمد داخل لوح ثلج.

عزيزتي كليوباترا..

كونـك كمفكـرة سياسـية وإسـتراتيجية عظيمـة, إعتليتـي العـرش في سـن السـابعة عـشر, لم أكـن قاصـدًا أن أسـيئ إلى تاريخـك العظيـم أبـدًا, كاتـب درس التاريـخ أربعـة سـنوات مـن عمـره يعلـم جيـدًا مـن هـي كليوباتـرا, لكـن بطـل الروايـة وظروفـه النفسـية دعـت لرؤيتـه التاريـخ مـن تلـك الزاويـة, لم أكـن أنـا مطلقًـا.